# قراءات معاصرة

## لقضايا في التراث اللغوي والأدبي والبلاغي

### بحوث محكمة في المؤتمر الدولي الثالث

(التراث اللغوي والأدبي في ضوء المناهج الحديثة)

١٤٤٠/٧/٧ هـ ٢٠١٩/٣/١٤ م


الباحثون

أ.د. محمد محمد العمري
أ.د. محمد صلاح الدين الشريف
د. حسن بن فهد الهويمل
أ.د. سعد عبدالعزيز مصلوح
أ.د. محمد بن عبدالرحمن الهدلق
أ.د. مصطفى أحمد غلفان
أ.د. عز الدين المجدوب
أ.د. محمد نجيب العمامي

أ.د. محي الدين محسب
أ.د. أبو أوس إبراهيم الشمسان
د. حمد بن عبدالعزيز السويلم
أ.د. إبراهيم بن منصور التركي
أ.د. حسن بن محمد النعمي
أ.د. محمد بن سعيد الغامدي
أ.د. أحمد يوسف علي



كلية اللغة العربية
والدراسات الاجتماعية
asc.qu.edu.sa

قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة القصيم

# قراءات معاصرة

# لقضايا في التراث اللغوي والأدبي والبلاغي

## بحوث محكمة في المؤتمر الدولي الثالث

(التراث اللغوي والأدبي في ضوء المناهج الحديثة)

١٤٤٠/٧/٧ هـ ٢٠١٩/٣/١٤ م


الباحثون

أ.د. محمد محمد العمري
أ.د. محمد صلاح الدين الشريف
د. حسن بن فهد الهويمل
أ.د. سعد عبدالعزيز مصلوح
أ.د. محمد بن عبدالرحمن الهدلق
أ.د. مصطفى أحمد غلفان
أ.د. عز الدين المجدوب
أ.د. محمد نجيب العمامي

أ.د. محيي الدين محسب
أ.د. أبو أوس إبراهيم الشمسان
د. حمد بن عبدالعزيز السويلم
أ.د. إبراهيم بن منصور التركي
أ.د. حسن بن محمد النعمي
أ.د. محمد بن سعيد الغامدي
أ.د. أحمد يوسف علي



كلية اللغة العربية
والدراسات الاجتماعية
asc.qu.edu.sa

قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة القصيم

ⓒ جامعة القصيم، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

جامعة القصيم، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية

قراءات معاصرة لقضايا في التراث اللغوي والأدبي والبلاغي؛ بريدة، ١٤٤٠هـ

ص ٤٥٦ ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ١ - ٧٧ - ٨١٧٦ - ٦٠٣-٩٧٨

١- الأدب العربي - مؤتمرات ٢-اللغة العربية - مؤتمرات

٣- الأدب العربي - نقد مؤتمرات أ- العنوان

ديوي ٨١٠،٦٣ ١٤٤٠/٦٧٣٧

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٦٧٣٧

ردمك: ١ - ٧٧ - ٨١٧٦ - ٦٠٣-٩٧٨

للتواصل:

كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية

asc@qu.edu.sa

قسم اللغة العربية وآدابها

quarabic@qu.edu.sa

بسم الله الرحمن الرحيم

| | | |
|---|---|---|
| الفصل الأول: التراث اللغوي والأدبي وإشكالية التجديد | | ١١ |
| التراث اللغوي العربي: أزمة كفاية أم أزمة تقادم | أ.د. محمد محمد العمري | ١٣ |
| فجوات في تجديد علوم العربية (التجديد النحوي نموذجاً) | أ.د. محمد بن سعيد الغامدي | ٣٥ |
| تنازع البقاء بين مناهج التراث والمعاصرة في النقد الحديث | د. حسن بن فهد الهويمل | ٥١ |
| التراث بين سلطة النموذج وخطاب التأويل | د. حمد بن عبدالعزيز السويلم | ٨١ |
| التراث والمعرفة والثقافة | أ.د. أحمد يوسف علي | ٩٧ |
| الفصل الثاني: قراءات معاصرة للتراث اللغوي | | ١١٩ |
| التراث العربي واللسانيات الممكن والمستحيل | أ.د. مصطفى أحمد غلفان | ١٢١ |
| مفاهيم النحو العربي في ميزان مكتسبات النظرية اللسانية | أ.د. عز الدين المجدوب | ١٧٣ |
| قراءة اللسانيات العربية القديمة في ضوء المناهج اللسانية الحديثة | أ.د. محمد صلاح الشريف | ١٩٥ |
| الرتبة بين التراث النحوي وتداوليات الخطاب | أ.د. محي الدين محسب | ٢٦٣ |
| حضور التراث في أعمال داود عبده | أ.د. أبو أوس إبراهيم الشمسان | ٣١٣ |
| الفصل الثالث: قراءات معاصرة للتراث الأدبي والبلاغي | | ٣٥١ |
| أسباب خفاء المعاني في نظر أبي الحسن الماوردي مقارنة بآراء النقاد القدماء والمعاصرين | أ.د. محمد بن عبدالرحمن الهدلق | ٣٥٣ |
| مقاييس الفصاحة في البلاغة العربية: قراءة معاصرة | أ.د. إبراهيم بن منصور التركي | ٣٦٩ |
| تنازع المكانة بين الشعر والسرد: قراءة في السياق الثقافي | أ.د. حسن محمد النعمي | ٣٩٩ |
| الفن والأطروحة في ثلاثة نصوص سردية قديمة | أ.د. محمد نجيب العمامي | ٤١٣ |
| تجربتي مع البلاغة العربية | أ.د. سعد عبدالعزيز مصلوح | ٤٣١ |

# التراث اللغوي العربي واللسانيات:
# الممكن والمستحيل

أ. د. مصطفى غلفان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء عين الشق

جامعة الحسن الثاني

إلى الصديق الأستاذ الدكتور عزالدين مجدوب:

- من وحي المنوال النحوي العربي،
- وبمناسبة مرور عشرين سنة على صدوره.

«إن إعمال المفاهيم اللسانية في التراث أصعب من تحصيل هذه المفاهيم في حد ذاتها وإدراكها في مصادرها أو نشرها بلسان غير اللسان الذي اكتشفت فيه، أو قل إن إعمالها في سياق حضاري غير السياق الذي نشأت فيه يمثل مستوى من الفهم والامتلاك أرقى من الفهم الأول وهو في صعوبته يكاد يضاهي صعوبة ابتكارها من اصلها لأنه يقتضي من الباحث إدراكا لحقائق العلم في خصائصها المجردة وفي ماهيتها الصرف مهما كانت الملابسات الطارئة التي تحف بها أو الأعراض التي تتنكر بها»

عز الدين مجدوب، المنوال النحوي العربي، ص٤٢.

- **استهلال**

تحتمل عبارة التراث اللغوي في ضوء المناهج الحديثة تأويلات عدة، يجعل التمعن النظري في طرفي المعادلة وهما التراث اللغوي العربي من جهة والمناهج الحديثة من جهة ثانية مفتوحا على رؤى معرفية متشعبة ومتنوعة، متقاربة ومتباعدة، متماثلة ومتناقضة في الآن نفسه. وتحيل هذه العلاقة اتصالا وانفصالاً على شبكة من الإشكالات والقضايا المعرفية المتداخلة التي لا تنحصر في التراث اللغوي في ذاته كمعطيات تتعلق بمنجز قديم في دراسة اللغة العربية فحسب، بل تمتد آثارها إلى قضايا ومسائل أخرى تمس صميم الفكر العربي الحديث في تشكل عمق بنيته الذهنية وشمولية مكوناته التاريخية والاجتماعية والثقافية وحتى السياسية، لعل من أبرزها وأشدها خطورة وشأنا وامتدادا في التاريخ العربي الحديث ما أطلق عليه إشكالية الأصالة والمعاصرة أو التراث والحداثة التي تمثل منذ ما يسمى بالنهضة العربية القضيةَ الأولى التي تشغل بال الفكر العربي.

**١- بين إكراهات الحضارة والعلم**

هي إذن علاقة معقدة وملتبسة ضاعف من تعقيدها والتباسها أن حمَّلتها الدراسات العربية والأجنبية قراءات وتأويلات متلونة، فصيرتها إشكالية غير عادية وغير متكافئة تصوريا ومنهجيا، مستكينة أحيانا ومتوترة أخرى، استيهامية وطوباوية في جل حالاتها، واقعية وموضوعية في القليل من الحالات. والأكيد أن أغلب ما يقال في موضوع الصلة بين التراث اللغوي ومناهج البحث الحديثة ينتمي إلى حقل المعرفة التي لا تقع تحت طائلة البحث العلمي المضبوط. فنحن بصدد إشكالية تندرج ضمن

معرفة تخترقها الإيديولوجيا طولاً وعرضا، الإيديولوجيا ليست بالمعنى القدحي للكلمة حين تحيل على الممارسة السياسية، وإنما بمعنى نظرية الأفكار والتصورات العامة أي النظرية التي تعالج تشكُّل أنساق الأفكار والتصورات منذ أفلاطون إلى اليوم. هي إذن في ابتداء الأمر ونهايته علاقة بين فكرين لغويين متباعدين زمانا وثقافة تغلفها الإيديولوجيا شكلا ومضموناً صراحة أو ضمناً فتعرضها لاستيهامات فكرية وأحلام يقظة لا يستطيع أحد منع أصحابها من تمجيد الماضي وتوظيفه في مواجهة الحداثة الفكرية أو فرصة لنقد الفكر القديم والهجوم عليه من خلال التشبث باللسانيات، ومن ثمة السعي نحو خلق مواجهة وهمية بين المعرفية الحديثة والقديمة. هي مرة أخرى وليست الأخيرة علاقة متعددة الأشكال والتجليات: فيها الظاهر والباطن، المستور والمكشوف، والمصرح به والمسكوت عنه والممكن والمستحيل.

لا ينبغي أن يفهم من هذا الكلام أنه تعبير عن موقف عدائي من التراث اللغوي العربي القديم أو انحياز للسانيات. نحن ندرك جيداً ونعي طبيعة الخلفيات المعرفية والحضارية الثاوية وراء طرفي العلاقة. لدينا من جهة أولى: إكراهات تاريخية وحضارية باعتبار التراث رأس مال إنسانياً رمزيا ماديا ومعنوياً، حاضرا وغائبا في الوقت ذاته مهما كان موقفنا منه وصلتنا المعرفية والسلوكية به، لا مناص من أخذه في الحسبان حين النظر في واقع العديد من الثقافات الإنسانية المعاصرة وفي مقدمتها الثقافة العربية. ولا يوجد اليوم عاقل يمكنه أن ينكر أهمية التراث (أو التراثات الإنسانية) أياً كان مجالها وقيمتها التاريخية والراهنة في حياة المجتمعات المتقدمة وغير المتقدمة، وحقها في امتلاك تراوثها اللامادية

والرمزية لاستثمارها وفق حاجاتها المادية والمعنوية إقراراً بشرعية قراءة التراث واعترافاً بدوره الإيجابي في الحفاظ على الهوية والتاريخ في عالم يتسم اليوم بالعمل المنظم على سلخ الأمم والشعوب عن تاريخها وماضيها وخصوصيتها الثقافية لتذويب الخصوصيات التاريخية والثقافية في نموذج واحد ووحيد مهيمن ومستبد. يتم هذا في عالم اليوم أحيانا باسم عولمة المعرفة والسلوكات الاجتماعية والثقافية، وأحيانا باسم العلم نفسه وتقدمه وإنجازاته المتلاحقة. غير أن هذه الإكراهات الحضارية الراهنة إزاء التراث، بما تلقيه من مسؤوليات جسيمة إزاء الذات والتاريخ والثقافة والمصير المستقبلي، لا يجب أن تحجب عنا مقتضيات النشاط الفكري الحديث والسعي إلى تحقيق المعرفة العلمية الرصينة والسليمة وشروطها التصورية والمنهجية التي تسمح لنا بامتطاء قطار الممارسة العلمية الفعلية والتحرر من الممارسات الإيديولوجية والأسطورية والخرافية وغيرها أملاً في الخروج من التخلف، حتى لا تصبح الدعوة إلى التراث والتشبث به محكومة بأبعاد خارجة عن طبيعة العلم ومنجزاته، من خلال الدعوة إلى تمجيد الذات والتنويه بها. ومن ثمة يجسد موضوع العلاقة بين القديم والحديث نوعا من العبث المعرفي، فنؤول الفكر اللغوي قديمه (التراث اللغوي العربي) وحديثه ( اللسانيات) كما نريد، ووفق ما نرغب فيه. وقد حصل في أدبيات الفكر اللغوي العربي الحديث شيء غير يسير من هذا الوضع الذي أشرنا إليه، إذ أصبح التراث اللغوي العربي في ضوء اللسانيات مجال استنتاجات وتأويلات خيالية لا تدعمها نظرية المعرفة ولا تاريخ العلوم وفلسفة مناهجها، وباتت الاستنتاجات والأحكام والنتائج تطلق على عواهنها دون رقيب معرفي ولا حسيب منهجي مثلما

نقرأ عند من قارن بين تصورات اللغويين العرب القدامى فخلص إلى أن نظريات اللسانيات ومناهجها التي « جاء بها المحدثون في أوروبا وأميركا إلا بضاعتنا ردت إلينا في أثواب أعجمية »[1].

**٢-جدلية العلم وتاريخيه**

والنظر إلى التراث اللغوي العربي في ضوء اللسانيات يستلزم وجود مستويين من التفكير:

أولا: تفكير تاريخي نقدي قادر على توضيح المنطلقات النظرية والمنهجية المحورية سواء في التراث اللغوي العربي أو في اللسانيات بشكل لا لبس فيه يسمح بضبط الخصائص النوعية التي تسم طبيعة التحليل اللغوي القديم من حيث هو نحو ولغة وبلاغة وأصول وما إلى ذلك والتحليل اللساني الحديث من حيث هو لسانيات وما يتصل بها من معرفة علمية ومنهجية، وترسم معالمها الدقيقة وما يميزها عن غيرها من المعارف اللغوية. ولا يتعلق الأمر بإدراك المنطلقات والأصول العامة التي قام عليها التراث اللغوي العربي القديم في جانبه النحوي واللغوي أو بتفاصيل تمايز واختلاف التصورات المعروفة في اللسانيات البنيوية والتوليدية التحويلية والوظيفية التداولية وغيرها، بل تتعلق بالأسس الجوهرية والشروط اللازمة والضرورية التي تجعل من معالجة لسان معين أو ظواهر جزئية منه معالجة تندرج ضمن اللسانيات بمعناها العلمي الدقيق، وليس في إطار النحو القديم أو فقه اللغة أو مجرد كلام انطباعي لا يمت إلى اللسانيات بصلة. يتعين في البداية أن نجيب عن الأسئلة

(١) كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ط٣ ١٩٩٢/ط١٩٨١، ص ٧.

بحوث محكمة مقدمة في المؤتمر الدولي الثالث (التراث اللغوي والأدبي في ضوء المناهج الحديثة) قراءات معاصرة لقضايا في التراث اللغوي والأدبي والبلاغي
٨/٧/١٤٤٠ هـ ١٤/٣/٢٠١٩ م

المتعلقة بماهية اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة بحثا وتدريساً، هذه اللســانيات التي « أصبح يتحدث عنها الكل، ويستشهد بها الكل، ويشحن مراجعه ببعض منه. ما هي هذه اللسانيات كعلم ونشاط تحليلي وكفلسفة وكصورنــة إلخ؟ كيف نســتطيع تمثلها؟ ما علاقتهــا بالثقافة؟ ما علاقتها بالعلوم الأخرى الدقيقة وغير الدقيقة. ما النشــاط اللساني بالمقارنة مع أنشطة علمية أخرى؟».[1]

ومصدر هذه التســاؤلات أن خطاب اللســانيات ومــا يرتبط بها من مناهج بحث وتحليل في الظواهر اللغوية وغيرها يســتجيب إلى جملة من المعايير الإبســتيمولوجية القادرة على التمييز بين المناولة العلمية لقضايا اللغــة والمناولــة التقليدية لهــا. ونعتقد أنه بدون هذه الأســس التصورية والمنهجية العامة، ســيظل النقاش العربي حول صلة التراث باللســانيات مجرد كلام عام يجسد حوارا نرجسياً مع الذات يعبر عن رغبات مكبوتة أو الحلــم بمــا لم يتحقق، أو نكوصا مرضيا نحــو الماضي. قد يتخذ هذا الحوار اتجاهات أخرى لا طائل منها نظريا ومنهجياً لعلها تندرج في صلب الخطاب الإيديولوجي أكثر مما هي تحليل تاريخي نقدي لعلاقة اللسانيات بتاريخهــا في روافده العربية. ولا شــك أن فهم هذه التســاؤلات النظرية والمنهجية الجوهرية واستيعابها بعمق سواء تعلق الأمر باللسانيات أو بنظرية المعرفة أو فلســفة العلوم كفيل أن يقــدم لنا أدوات إجرائية فاعلة وقادرة على فهم أشــمل وأدق لطبيعة الفكــر اللغوي القديم (عربي وغير عربي) في ضوء اللسانيات وما تقترحه علينا من نظريات ومناهج بحث وتحليل.

والواقــع أن الثقافــة العربية الحديثة مارســت جزءا مــن هذا الفكر

(١) الفاسي الفهري،

التاريخـي التحليلـي والنقدي المقـارن في القرن الماضي مـن قبيل صنيع تمام حسـان في مناهج البحث في اللغة (١٩٥٥) أو اللغة بين المعيارية والوصفية (١٩٥٧) ومحمود السعران في مصنفه: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي١٩٦٢.

يذكـر صاحـب مناهج البحث في اللغـة أن غايته من مصنفـه أن « يقدم للقارئ العربي ما اصطنعه الغربية من منهج وصفي وليعرض هذا عرضا مفصـلاً» (ص ٧) إلـى أن يخلـص إلى انه يريد أن يلقـي « ضوءا جديداً كاشفاً على التراث اللغوي العربي كله منبعثا من المنهج الوصفي في دراسة اللغة » (ص ١٠) هذا إذا اقتصرنا على النصوص الصريحة أو المباشـرة . أمـا النصوص الضمنية أو الموجهة لهذا المنحى فتحضر بشـكل متواتر في كتابـات عربية أخرى على نحو ما نجد عند إبراهيم مصطفى ١٩٣٧، وإبراهيم أنيس ومهدي مخزومي حسـب ما كشـفت عن ذلك دراسـة عز الديـن مجدوب المنوال النحوي العربـي(١٩٩٨). ولا أحد ينكر قيمة هذه المصنفات التي أسهمت-بما لها وما عليها - في لفت الانتباه إلى الأسس المنهجيـة والنظريـة التي انبنت عليها الدراسـات اللغوية الحديثة موازنة بالتراث اللغوي العربي. غير أن الثقافة العربية الحديثة في شقها اللغوي لـم تهتـم لاحقاً بما حصل من تطـوُّر نوعي في اللسـانيات عربياً وكونياً، إذ لـم تقم المصنفات التي قدمت اللسـانيات إلـى القارئ العربي بفحص خصائص خطاب اللسـانيات في مسـتوى الأسـس التصوريـة والمنهجية فحصا منهجيا دقيقاً عاما وشاملاً. ولم تنل مظاهر التفاعل بين الثقافة اللغوية العربية الحديثة واللسانيات في صورتها المتقدمة-ما يستحقه من عناية وأهمية لاسـيما بعد التطورات المذهلة التي عاشتها اللسانيات مع اسـتقرار مبادئ اللسانيات البنيوية واللسانيات التوليدية وما تلاهما من

نظريـات في التداولية وتحليل الخطاب وفروع اللسـانيات من لسـانيات اجتماعية ونفسية وإدراكية وأنثروبولوجية وحاسوبية وغير ذلك.

ثانياً: رؤية واضحة ومضبوطة، تسـتند إلى تصور دقيق لمفهوم العلم وتاريخه ولطبيعة الممارسة العلمية ولمفهوم التطور العلمي وشروط التجاوز النظـري. إن وجـود تأملات لغوية قديمة قبل ظهور اللسـانيات -أياً كان مستواها المعرفي في الحضارات الإنسانية السابقة - يجعل موضوع النظر في التـراث عامـة في ضوء المناهـج الحديثة محاولـة محفوفة بصعوبات واضطرابـات معرفيـة. والحديـث عن التـراث اللغوي في ضـوء المناهج الحديثة ضرب من كتابة التاريخ التي سـواء تعلق الأمر بتاريخ الشـعوب والحضـارات أو تاريخ المعـارف والأفكار والتصورات هـي تأويل معاصر لقضايـا معرفية قديمة، مما يطرح إمكانـات فهم أبعاد المعارف القديمة ومراميهـا الحقيقيـة. نحن بصدد كتابـة ذاتية تنطلق من سـياق معرفة حديثـة مدججة بـأدوات تصورية ومنهجية حديثة قلبـا وقالباً للنظر في معرفة قديمة يتم تقييمها في ضوء ما هو جديد. والمؤرخ وهو هنا الباحث في صلـة التراث باللسـانيات، إنمـا يفهم الأحداث والتصـورات الماضية وفق وجهة نظره المكتسـبة من العلـم في صورته الحاضرة، مما يعني أننا نكتـب التاريـخ كما نفهمه ذاتياً، ونتصوره كما نرغب فيه حسـب معارفنا وأهدافنا والقناعات الشـخصية التي تقـود عملنا ذاتيا وموضوعياً، ومن ثمـة، نحن نبدع التاريخ الذي نكتبه وفـق نمط بنية تفكيرنا. وحين يُنْظر إلـى التـراث اللغوي في ضوء المناهج اللسـانية الحديثة، فإن ذلك سـيتم حتماً وفق مقتضيات اللسانيات المعاصرة بسياقاتها الفكرية والاجتماعية والتاريخية، وحسب إدراكنا لما يهيمن فيها من تصورات ومرجعيات معرفية

تسلط على الفكر القديم لاستخلاص المظاهر التي تبدو متصلة أو غير متصلة بنظائرها من التصورات الواردة في اللسانيات. وتعكس هذه النظرة موقفا مغلوطاً عن التراث اللغوي وعن اللسانيات حيث. «تنظر حتما إلى الماضي من خلال عيون الحاضر مركزة على تلك الجوانب من الأعمال المبكرة التي تبدو متصلة على نحو خاص بالمقاربات الحالية أو تبدو على الجانب الآخر غير متصلة بها بشكل صارخ (...) ولكن هذا يحمل في طياته خطر تقييم كل الأعمال السابقة في موضوع معين من وجهة النظر المتحيزة للماضي كما يحمل خطر التصور تاريخ لتاريخ علم معين بوصفه تقدما مطرا حينا وغير مطرد أو منحرفاً حينا آخر نحو هدف معين محدد سلفاً من قبل الواضع الراهن للعلم».[1]

وخلاصة القول إن العلاقة بين التراث واللسانيات لا تخرج عن إطار ما يحدث من اتصال أو انفصال بين مراحل علم من العلوم هو هنا اللسانيات وفلسفته التصورية والمنهجية التي يقوم عليها ليتخذ هذا التاريخ في العصر الحديث مسارين: «مسار يطرح بكل بساطة الأخطاء التي تضمحل تماماً، ومسار يسجل المكتسبة والنظريات الجديدة التي وقع بناؤها. وعموماً نحن أمام جدلية مضاعفة جدلية طرح كلي للأخطاء، وجدلية احتواء النتائج القديمة التي لا زالت صالحة، واكتفي بإدخال تغيير عليها في المنظومة النظرية الجديدة المكتسبة.»[2] ومعنى هذا أن

---

(١) روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، [ترجمة أحمد عوض ] الكويت، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب.(عالم المعرفة. رقم ٢٢٧ / ١٩٩٧، ص ٢٠.

(٢) لويس آلثوسر، الفلسفة وفلسفة العلماء العفوية [ترجمة وتقديم رضا الزواري]. الدار البيضاء، عيون ،١٩٨٩، ص ١٠٢.

لـكل علـم تاريخه الخاص به من خلال مراحل التفكير التي مر بها، وهي المراحل التي قد يكون بينها اتصال أو قطائع معرفية فتسهم أو لا تسهم في نضج علم من العلوم. على أن العلاقة بين العلم وتاريخه تطرح مجموعة من الإشكالات والقضايا المعرفية بشأن تصور طبيعة هذا التاريخ نفسه: فهل يكون تاريخ العلم تاريخَ انتقال النظريات (اللغوية) ومذاهبها، وانتقال المبادئ والطرائق، أم هو تاريخ مصادرها والتأثيرات الكبرى التي عرفتها؟ [1]، أم إنه جرد للأخطاء والهفوات المعرفية المتراكمة في علم من العلوم؟

وأيا كان الجواب على الأسئلة السالفة، فإن اعتماد أرضية تصورية عامة منطلقاً للحديث عن العلاقة بين العلم( اللسانيات) وتاريخه ( الفكر اللغوي العربي القديم) أمر لا مناص منه منهجياً، من شأنه أن يساعد على تمثل وإدراك القضايا التي تثيرها صلة التراث اللغوي (العربي) باللسانيات تفاديا للانزلاقات واللبس المعرفي الذي قد يحصل في تمثل أبعاد هذه العلاقة المعقدة والمثيرة. وقد توفق عزالدين مجدوب في دراسته الموسومة: المنوال النحوي العربي قراءة لسانية جديدة (١٩٩٨) في مهمة الكشف بما لا يدع مجالا للشك والتردد عن الاختلالات التصورية والمنهجية التي شابت محاورة اللسانيين العرب الحدثين للتراث اللغوي العربي في ضوء النظريات اللسانيات لاسيما تحليل إمكانات وحدود النقد الذي وجهه للتراث اللغوي عامة وللنحويين ومنهجيتهم أولئك الذين سموا بالوصفيين العرب في النصف الأول من القرن العشرين. »فمقاربات التراث عندما كانت تنتقد التراث وتقيمه لم تكن تستند إلى نظرية واضحة لما ينبغي أن تكون عليه الدراسة اللغوية العلمية للغة

(١) جورج مونان، تاريخ اللسانيات منذ نشأتها إلى اليوم، ص ٥.

ولما ينبغي أن تكون عليه الدراسة العلمية عموما ولم تكن واعية بكل الصعوبات النظرية التي تقتضيها عملية التقييم هذه»[1]. وحين تغيب المعرفة الدقيقة بمقتضيات علم من العلوم [هو هنا اللسانيات] وبأسسه النظرية والمنهجية وتاريخيتها، وتطور إشكالاته وارتباطاته بمجالات معرفية أخرى، تصبح النظرة إلى العلاقة بين العلم ومراحله السابقة أو بين اللسانيات والتراث سطحية وساذجة تكتفي بتقديم أصناف مختلفة من التأويلات المجحفة، وتجسد مظهرا مكشوفاً للنقص العلمي في إدراك السمات النوعية المميزة للفكر اللغوي قديمه(التراث) وحديثه (اللسانيات )، بل تصبح هذه العلاقة نفسها مجالاً للتضليل المعرفي الذي يقود إلى رفض التقدم العلمي ضمني. وقد اتسم جزء كبير من الأدبيات اللغوية العربية الحديثة بشيء غير قليل من هذه المظاهر السلبية ولاسيما ما يتعلق «بقلة التنظير للممارسة العلمية وعدم وعي الباحث [العربي] بالمسلمات التي ينطلق منها وعدم تفكيره فيما يقتضيه التسليم بها من مستلزمات ونتائج فرعية» [مجدوب، ص ١٢]. وقد يكون عمل عز الدين مجدوب ١٩٩٨ استثناء عربيا في هذا الباب يجب التنويه به.

أقدم في هذه المداخلة بعض الملاحظات المنهجية العامة عن صلة التراث اللغوي باللسانيات. وسأقف عند ما يبدو لي شخصيا أنه تماثل بينهما، وأدرجه ضمن صفة الممكن الواردة في عنوان مداخلتي الفرعي، على أن أتناول الجانب المستحيل في هذه العلاقة، من خلال الحديث عن توجه بارز في الثقافة العربية الحديثة يؤسس خطابه على نظرة غير موضوعية لصلة التراث اللغوي العربي باللسانيات، وهو التوجه الذي لا

(١) عزالدين مجدوب ، المنوال النحوي العربي، ص ١٢.

يقيم وزنا للاختلافات المعرفية بينهما، ثم أختم بما أعتبره شرطا منهجيا يمكــن أن يكون مدخلا لبناء علاقة موضوعية بين التراث اللغوي العربي أو على الأصح الدرس اللساني العربي الحديث واللسانيات.

### ٣- الممكن وتجلياته

نحــن أمام علاقــة يتعين تدبيرهــا بعقلانية ودون تعصــب فكري أو تزمــت معــرفي محلي (شــوفينية)، من خلال الحرص علــى خلق نوع من التفاعل المعرفي الدائم والمســتمر بين التراث اللغوي العربي واللســانيات لما فيه فائدة البحث اللســاني العربي. ويمكن النظر إلى التراث في ضوء اللسانيات من زوايا مختلفة غالبا ما يخلط بينها، أو لا يلتفت إلى الفرق بينها، لاسيما ما نلاحظه من خلط بين منظورين ينبغي التمييز بينهما:

- منظور حضاري يكون فيه التراث وســيلة حضاريــة تكفل التعرف على الذات العربية حضاريا وتســمح بإبــراز خصوصياتها المعرفية كونيا. وفي هــذا الاتجاه نعتبر التعامل مع التــراث أداة ناجعة للتعريف به لا كجــزء من الثقافة العربية الإســلامية فحســب وإنمــا أيضاً كمحطة تاريخية مهمة في تاريخ الفكر اللغوي الإنساني.
- منظور علمي نعتبر فيه التراث اللغوي منظومة معرفية محدودة بمرجعية تاريخية وثقافية توضح مصادره وترسم خطواته والمراحل التي اتبعها لتحقيق أهداف فكرية وسياســية واجتماعية ودينية اقتضتها ظروف حضارية معينة.

ويمكن القول إن لكل عصر لسانياته التي قد تسمى علم اللغة أو فقه اللغة أو النحو أو الفيلولوجيا أو الفلسفة أو أي شيء آخر. ومنذ أن وُجِدَ الإنســانُ، وحيثمــا وُجِدَ، وجد معه تفكير في اللغــة في تجلياتها المتنوعة.

ومنــذ وعى الإنســان بأهمية اللغــة ودورها في حياتــه العامة والخاصة، طــرح بصيغــة تلقائيــة أو مقصودة مجموعة من الأســئلة المثيرة التي لم تفقد حتى اليوم إثارتها وسحرها. لكن لا أحد ينكر أن اللسانيات تختلف عن الدراســات اللغوية القديمة ســواء فيما يتعلق بالفرضيات العامة، أو بمناهــج التحليل والأدوات الإجراءات المتبعة فيها. (نجد هنا ما يســميه مجــدوب في المنــوال النحوي العربــي الفرضيات العامــة والمناويل). غير أن اختلاف الســياق التاريخي والمعرفي بــين روافد التراث اللغوي العربي واللســانيات، واختلاف التصورات بينهما وتبايــن لغات التحليل فيهما لا يعنــي أنه لا شــيء يجمع بينهمــا، بل إنهما يلتقيان في كثيــر من القضايا والموضوعات التي يمكن التسليم بوجود قواسم مشتركة تاريخيا ومعرفيا ومنها: المادة موضوع الدراســة اللغوية والمفاهيم المتوســل بها في التعامل مع هذه المادة، ليأخذ بعد ذلك هذا المشــترك من التصورات والمفهومات دلالات محلية وتجليات مختلفة خاصة بكل تراث على حدة.

**٣-١- في المادة اللغوية**

تشــكِّل اللغة كمادة بحث معطى مشــتركاً طبيعياً بين التراث اللغوي واللسانيات، لتتكشف بعد ذلك مظاهر الفروق التصورية والمنهجية في ما يخــص طريقة التعامل مــع هذه المادة جمعاً، وترتيباً، وتصنيفاً، و تحليلها وصفاً وتفســيراً. واللغة الموضوع في التراث اللغوي العربي هي العربية أو اللســان العربي، ولم تحظ لغة أخرى بما حظيت به العربية من تأمل كان قائمــا في مجمله على قــدر كبير من الانجذاب والتعاطف العرقي الديني وفي ســياق ثقافي واجتماعي وسياسي، فجاءت هذه التأملات كلها إطراء وتنويها وإشــادة. وقد اعتبر اللغويون القدماء العربية لغة لا نظير لها في

الكون، لغة فوق جميع الألسنة البشرية تتفرد بخصائص ومميزات ليست في غيرها. فهي لغة الأرض والسموات. «والعربية خير اللغات والألسنة». [1] وفضلاً عن مكانتها الدينية المتميزة بحكم أنها لغة القرآن والإسلام، وليس ثمة لغة أخرى تفوقها قدرة على البيان والبلاغة والتعبير الدقيق. «إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده، فهذا أخس مراتب البيان (....) وإن أردت أن سائر الألسنة تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط» [2] أما ثراء المفردات العربية مقارنة بغيرها من الألسنة فحدث ولا حرج. «فلو احتجنا إلى أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد. ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأسماء المسماة بالأسماء المترادفة. فأين هذا من ذاك، وأين لسائر الألسنة من السعة ما للغة العربية؟» [3] ويكفي النظر في كتاب البيان والتبين للجاحظ [ توفي ٢٥٥ ه] على سبيل التمثيل لا الحصر لندرك قيمة العربية في نظر أهلها وما تمتاز به من صفات البيان والبلاغة التي تجعلها تتفوق على غيرها من الألسنة. وفي كتب التراث اللغوي والأدبي حديث لا ينتهي يجسد تعلق العلماء العرب بلغتهم وولعهم الكبير بها، سواء كانوا ممن درسوها في حد ذاتها أو كانوا ممن درسوها كآلة إلى علوم أخرى ولا سيما العلوم التشريعية والدراسات الفقهية والتفسيرية.

---

(١) أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، [تحقيق خالد فهمي ومراجعة رمضان عبد التواب]، القاهرة، الخانجي، ١٩٩٨، ص ٣.

(٢) أحمد ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة ، [تحقيق السيد أحمد صقر]، القاهرة، ص ١٦

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧.

ومـادة البحـث اللغوي العربي القديم ليسـت أي مـادة، بل هي اللغة العربيـة، عربية النـص القرآني وعربية النصوص الأدبية الراقية شـعرا ونثـراً المدونة أو المحفوظة في الذاكـرة. وقلما التفت اللغويون العرب إلى باقي المستويات اللغوية في العربية من منطوق أو من لهجات محلية ولغات العامـة. وقد ارتبط التعامل في التراث العربي مع اللغة العربية بالسـياق المعرفي للثقافة العربية القديمة عامة وللدراسـة النحوية واللغوية خاصة وهو سياق يحدده عاملان رئيسان:

- مفهوم النحو العربي والغاية منه في دراسة اللغة العربية، وتطوره عبر العصور.
- علاقـة النحـو العربي بعلوم أخرى سـواء كانت نابعة مـن داخل الثقافة العربية نفسـها كأصول الفقه وعلم الحديث وعلم الكلام، أو واردة عليها من ثقافات أجنبية، كالمنطق الأرسطي والفلسفة اليونانية والجدل.

وكان لهذين العاملين دور حاسـم في توجيه تعاطي اللغويين مع اللغة العربية من حيث أسـاليب روايتها وجمعها، والوسـائل المتبعة في تحليلها والأهداف المنتظرة من دراسـتها. وهو ما يسـمح باسـتخلاص جملة من السمات والملامح المنهجية:

- تنـوع مصادر المادة اللغوية، واختـلاف طبيعة مكوناتها [ قرآن كريم ، شعر عربي، كلام العرب]؛
- حصـر المـادة اللغة شـعراً ونثـراً في حـدود زمنية محـددة: [عصور الاحتجاج منتصف القرن الثاني الهجري في المدن والحواضر والرابع الهجري في البوادي ]
- حصـر كلام العـرب الممثل لكلام في مناطق معينـة من جزيرة العرب

[عمق الجزيرة العربية والابتعاد عن الاختلاط بالأجنبي].

- اختــزال الوضــع اللغوي المتعــدد (اللهجات أو لغات العرب) في نســق لغوي واحد هو العربية الفصحى الممثلة في لغة قريش.

ويبــدو أن في المقاربة التي اعتمدها اللغويون العرب ســعيا حثيثاً في البحث عن وحدة المادة المدروســة وتجانســها، يضمن للمعطيات نوعاً من التجريد اللازم لأجل استخلاص القواعد على أساس المطرد العام. وهي طريقة لها ما لها وعليها ما عليها. وفي كتابات العرب القدامى والمحدثين ما يدعم هذه الخلاصات المنهجية دونما تعســف في التأويل. ولذلك فإن طريقة اللغويين والنحاة العرب في التعامل مع المادة اللغوية طريقة منهجية باعتبارها تقوم على تقوم على أســس واضحة ودقيقة، وتحكمها ضوابط محددة كانت على الأقل في بداية الدرس اللغوي العربي صالحة وملائمة في سياقها التاريخي والثقافي والاجتماعي.

### ٣-٢- حضور الخاص وغياب العام

وإذا كانــت اللغــة العربيــة كلفــة خاصة بالمجتمــع العربــي وبثقافته العربية الإســلامية حاضرة بقــوة في التراث اللغــوي بحيث هيمنت على اهتمامــات اللغويين ونالــت عنايتهم الفائقة، فإنهــم أهملوا الحديث عن اللغة عند الكائن البشري كظاهرة عامة وليس العربي فقط، أي «مجموع الشــروط التــي تجعل بناء اللســان ممكنا وحظوظ هذه الشــروط كبيرة لتكون صالحة مهما كان اللسان. فاللغة وظيفة إنسانية مرتبطة بالجنس وإذا ليســت الألســنة ســوى إنجازات خاصة لهذه الوظيفة»[1]. ولم يعط

(١) روبير مارتان، مدخل لفهم اللســانيات. (ترجمة عبد القادر المهيري). بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٧، ص ٦٧.

اللغويـون العرب القدامــى اللغة كظاهرة عامة عناية خاصة، ولم ينزلوها أيــة منزلــة في مقارباتهم وتأملاتهم ومناقشــاتهم موازنــة بما قدَّموه عن العربية الفصحى التي استحوذت على فكرهم وأذهانهم ونالت تقديرهم. ولا نجد إلا إشــارات عارضة جدا حول اللغة بمعناها العام لا في كتابات النحويين واللغويين، وإنما عند بعض الفلاســفة والمتكلمين (القاضي عبد الجبــار وابــن خلدون وابن مســكويه). وكان لانحصــار البحث اللغوي في اللغة العربية وعدم الاهتمام بألســنة أخرى لا ســيما تلك التي تشــاركها بعض الســمات ونعني بها الألســن الســامية آثار على تحليلات اللغويين القدامى. ويخلص المستشرق الألماني برجشتراسر إلى « أن أكثر ضلالات النحويين واللغويين القدماء جهلهم باللغات الســامية على ان بعضها كان شــائع الاســتعمال في زمانهم» (١) ويمكن القول بأن العرب حين حصروا نظرهم في العربية دون غيرها من اللغات التي عرفوا بوجودها، إنما كانوا يعتبرون العربية وهي لغة الإسلام نموذجا لغويا ومعرفيا وحضارياً فريدا لغيرها من الألسنة الطبيعية في ذلك العصر. وليس معنى هذا أن النحاة واللغويــين العــرب لم يكونوا يعرفون ألســنة أخرى غير اللســان العربي. يقول الزجاجي محتجا للتقسيم الثلاثي لأجزاء الكلام في اللغة العربية:« وقد اعتبرنا ذلك في عدة لغات عرفناها سوى العربية، فوجدناه كذلك لا

---

(١) برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، [صححه وعلق عليه رمضان عبد التواب]، القاهــرة والريــاض، دار الخانجي ودار الرفاعــي، ١٩٨٢، ص ٥٢. والكتاب في الأصل مجموعة محاضرات ألقاها صاحبها في الجامعة المصرية ســنة ١٩٢٩. وموضوع حكم هذا المستشرق هو التأويلات التي قدمها بعض اللغويين العرب (وهو الزمخشري) بشأن أصل بعض الكلمات في الكلمات العربية التي قضوا بشأنها تقدير حذف بعض الأصوات أو إبدالهــا عــن غيرها، بينما تجد تلــك الكلمات العربية أصلها في اللغات الســامية.

ينفك كلامهم كله عن اسم وفعل وحرف » [1].

ولم يكن موقف التراث العربي من دراسة اللغة كظاهرة بشرية عامة استثناء في العالم القديم، إذ لا تختلف نظرة العرب عمن سبقهم في ثقافات أخرى. فليس في الفكر الهندي ولا في الفكرين اليوناني والروماني تأمل صريح في موضوع اللغة كظاهرة إنسانية، وإنما اقتصرت العناية الكاملة على لغة الثقافة والآداب الخاصة بهم، وإبعاد كل ما يتعلق باللهجات المحلية ولغات الشعوب المجاورة أو المسيطر عليها. والأنحاء القديمة في كل الثقافات القديمة كانت تتمحور حول دراسة اللسان الواحد ولا تتجاوزه على مستوى البنيات الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية. ونعلم أن الهنود كانوا يقدسون لغتهم السنسكريتية معتبرين أنها أكمل الألسنة، بل إن لفظة السنسكريتية نفسها تعني الكمال. وبالرغم من كل حكمتهم وتساميهم الإنساني فقد حصر الهنود اهتمامهم بالنحو السنسكريتي، ولم يخرجوا عن نطاقه كما يتضح من خلال عمل كبيرهم بانيني حوالي القرن الخامس قبل الميلاد . ولم يشذ الإغريق وبينهم ظهر سقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقيون وعشرات الأسماء العالمة عن هذا المنحى الأحادي في التعامل مع اللسان المحلي بالرغم من عمق تفكيرهم الفلسفي والمعرفي بأبعاده المنطقية العامة كمظهر من مظاهر دراسة العقل الإنساني. وليس مجهولاً لدى أحد، أن الإغريق كانوا يعدون كل من لا يتكلم لغتهم همجياً (Barbare) بالمعنى الحضاري للكلمة. ولعلهم كانوا يرون في منطق أرسطو مقولا ت فكرية عامة تنطبق على بنية العقل

---

(١) أبو القاسم الزجاجي: الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، بيروت، دار النفائس، ط ١٩٧٩/٢، ص ٤٥.

الإنسـاني الذي يتجلى في البنيات النحوية لسـائر الألسنة البشرية أينما وجـدت. وبهذا نفهـم اللجوء إلى المنطق الأرسـطي في الحضارة العربية وفي أوروبا إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر مرورا بنحو بور رويال في القرن السابع عشر.

أما تعاطي اللسانيات مع المادة اللغوية فشيء آخر .فموضوع اللسانيات مزدوج: إنها دراسـة اللغة كملكة بشـرية عامة ودراسـة الألسن الطبيعية الخاصة بالمجتمعات. وبالإمكان أن ننظر إلى اللسانيات من زاويتين:

- ما درج على تسـمية باللسـانيات العامة أو ما يصطلح عليه في النحو التوليدي بالنظرية اللسانية العامة.[1] حيث تعد اللسانيات نظرية علمية عامـة أي مجموعة من الفرضيات عامة حول اللغة البشريةوالألسـن الطبيعيـة، بصرف النظر عما يبـدو من اختلافات وتباين في بنياتها، أو المظاهر المتعلقة بكل لسان على حدة.
- زاوية خاصة، تتعلق بالتعامل المباشـر مع لسـان محدد كاللسان العربي أو اللسـان الفرنسـي أو الإنجليزي أو أي لسـان آخر. «إن اللسانيات كمجال لاختبار المبادئ العامة وميدان لتقدير مدى فعالية ما تقترحه اللسانيات في بعدها العام من قواعد و مبادئ كلية، في إطار التطبيق على بنيات لسان محدد أي ما يسمى بالنحو الخاص». [2]

ونجد عند أكثر من باحث لسـاني هذا التصور لطبيعة اللسـانيات. فقـد عرف إميل بنفينيسـت *Benveniste* (١٩٠٢-١٩٧٦) اللسـانيات بأنها دراسـة اللغة والألسـن: «إن للسـانيات موضوعاً مزدوجاً. إنها علم

(١) انظر أعمال شومسكي الأخيرة،حيث يرد الحديث بإسهاب عن مفهوم النحو الكلي

*Noam Chomsky. Structures syntaxiques. p. 56* (2).

باللغة *Langage* وعلم بالألسن *Langues* » [1]. وفي الاتجاه نفسه، بين مانفريد برفيتش *Manfred Bierwiech* أن للسانيات وجهين: دراسة ألسن خاصة ومحددة يسميها اللسانيات الخاصة، ودراسة الإطرادات العامة ويسميها اللسانيات العامة. وبين الدراستين علاقة تكامل.«فالاطرادات العامة لا يمكن اكتشافها إلا بدراسة الألسن الخاصة، كما أنه لا يمكن تحليل الألسن الخاصة إلا إذا كان منطلقنا افتراض بعض الاطرادات العامة». [2]

وعلى العكس من الدراسات اللغوية القديمة لا تهتم اللسانيات بمواد لغوية دون أخرى، وإنما تنظر إلى وقائع اللسان في شموليتها وكليتها دون تمييز قيمي أو معياري. فهي لا تمنع واقعا لغويا وتسمح بغيره كما نجد ذلك في التراث النحوي واللغوي الذي يتأسس على تمييز الكلام المستقيم من الكلام الفاسد والاهتمام بالأول دون الثاني. فمادة اللسانيات ليس ما تَعَارَفَ عليه اللغويون القدماء حين حصروا اللغة التي درسوها في لغة النصوص القديمة، ولغة الأدب الراقي المكتوب مع ما ترتب على ذلك من إهمال واضح لمستويات أخرى من معطيات الحديث اليومي،. فالمادة *matière* التي ينبغي أن ينصب عليها البحث اللغوي حسب سوسير، « تشمل جميع مظاهر الكلام البشري، سواء أتعلق الأمر بكلام الشعوب المتوحشة، أم بكلام الأمم المتحضرة، وسواء أتعلق الأمر بلغة العصور

---

(1) *Problèmes de linguistique générale, Paris, :Emile Benveniste .Gallimard, 1966, p.19*

(2) *Manfred Bierwiech, Modern Linguistics, Paris, Lahague Mou- .ton, 1954*

الكلاسيكية، أم بلغة عصور الانحطاط، مع الاهتمام ليس فقط باللغة الصحيحة، أو باللغة الجميلة، وإنما بكل أشكال التعبير الإنساني».[1]

وبهذا التمييز جعل سوسير اللسانيات تعانق الواقع اللغوي؛ من خلال العناية بلغة الحياة اليومية؛ مَهْمَا كانت قيمتها الحضارية والتعبيرية، ودرجة أدبيتها ومستوى انتشارها. ومهمة اللسانيات هو وصف البنيات اللغوية وظواهرها وليس شيئاً آخر. فاللسانيات رؤية وصفية أو/وتفسيرية للظواهر اللغوية المدروسة بالأساس تعاين وتصف ما هو موجود من بنيات لغوية رغبة في التقنين والتفسير: تفسير صحة التراكيب القاعدية *Grammaticale* والتراكيب غير القاعدية *Agrammaticale* على حد سواء من خلال اهتمامها بما يقال وبما لا يقال، وليس بما يجب أن يقال فقط، مثلما نجد في الدراسات اللغوية القديمة في مستوى النحو والمعجم. ومن هنا نفهم ما يرد في الدراسات النحوية القديمة من عبارات تعكس نوعا من الرقابة اللغوية على المستعمل أو المتعلم، مثل: لا يجوز/ لا ينبغي/ يستحسن /يجب/ قول ضعيف/ قول ، مهمل/قول متروك). وفضلا عن موضوعيتها في التعامل مع المادة اللغوية، تؤكد اللسانيات ضمن خلفياتها المعرفية كعلم يتعامل مع مادة وموضوع في ذاته-أنه:

- لا تفاضل بين الألسنة ولا تمايز بينها. وليس هناك لسان أفضل من لسان أو لسان أفضل من لهجة. صحيح أن بعض الألسنة لها حمولات حضارية لا يستهان بها مقارنة باللهجات المحلية أو الألسن الحديثة النشأة،

(١) يميز سوسير كما هو معلوم بين مفهومين أساسيين هما: المادة *matière* والموضوع *objet* ينظر في:

*Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale, Paris, . Payot, 1974/1916, p. 23.*

لكن اللسانيات تعالج الألسنة من حيث هي بنيات صورية أو وظيفية، وليس كأنساق حضارية أو ثقافية. ومساهمة الألسنة من الناحية الحضارية والثقافية موكول لمجالات معرفية أخرى وليس للسانيات.

- القول بسهولة لسان معين أو صعوبته هو من المسائل غير الواردة بالنسبة الى اللساني لأنها تمثل أحكام قيمة ذاتية ليس لها أهمية علمية أو منهجية.
- الخصوصية والتفرد اللغوي ليس سوى وهم ثقافي مرتبط بذهنية محددة. فالألسنة البشرية متشابهة في كثير من السمات والخصائص ومختلفة في أخرى. وينفرد كل لسان بظواهر معينة قد لا توجد في ألسنة أخرى وحتى الأقرب إليها [1]. وبعض الظواهر في العربية لا يوجد في ألسنة أخرى، ولكن بعض ما يوجد في هذه الألسنة من ظواهر لا يوجد في العربية.

## ٤- المفاهيم

لما كان تحليل مادة لغوية معينة في القديم كما اليوم يقتضي الحديث عن أشياء معينة ضمن هذه المادة أو بعض مكوناتها باستعمال عبارات أو تسميات من اللغة العادية أو اللغة الفنية أو ما يعرف بالمصطلحات، فقد احتفظت اللسانيات البنيوية والتوليدية وغيرها بالإرث المصطلحي والمفاهيمي المعروف

(١) يلاحظ سوء الفهم بشأن الخصائص المشتركة التي تتحدث عنها بعض النظريات اللسانية الحديثة مثل النحو التوليدي التحويلي. يرد هذا الالتباس بشكل واضح عند بعض المؤلفين نتيجة لفهم خاطئ للنظرية في علاقتها بالتطبيق. فاللسانيات ترفض بدعوى «أنها تصدر عن اتجاه عالمي يفترض أن هناك خصائص وقوانين صوتية واجتماعية توجه سائر اللغات في تطورها العام. وليس لها ما يبررها» ( محمد محمد حسنين: مقالات في اللغة والأدب، ص ٧٢)..

في التـراث اللغوي منـذ الحقبة اليونانيـة. إن مفاهيم مثل أجـزاء الخطاب (اسـم، فعـل، حرف)، ومفاهيـم الجملة بأنواعهـا ومكوناتهـا الداخلية على سـبيل التمثيل لا الحصر، التي تم تداولها في التقاليد اللغوية القديمة شرقا وغرباً شـكلا ومضموناً . ظلت هي نفسـها في اللسانيات البنيوية والتوليدية وغيرهـا، رغـم أن اللسـانيات الحديثة عملـت على تغيير أسـاليب ضبطها وتحديدهـا من الناحية الشـكلية والإجرائيـة. ولا نعتقد أن التـراث اللغوي العربي كتراث إنسـاني يخرج عن المسـار العام الذي سار عليه الفكر اللغوي القـديم وإن اختلفت المرجعيات التاريخيـة والثقافية والتصورية العامة. ومن الطبيعي القول إن التراث واللسانيات يشتركان في عدد من المفاهيم منها على سـبيل التمثيل لا الحصـر: اللغة والصـوت والمخارج وصفاتها والكلام والقول وأجزاء الكلام (الفعل والاسـم والحرف) والجملة والخطاب والنص والإسـناد والمسـند والمسـند إليه أو الموضوع والمحمـول والمكونـات والتركيب والترتيب والتقديـر والموقـع والعمل والعامل والحالة الإعرابية، الخ .. ويذهب كثير من الدارسـين العرب المحدثين إلى القول بأن المفاهيم التراثية العربية في النحو والبلاغـة وغيرها هي نفسـها الواردة في اللسـانيات. ويكفـي النظر في هذا الباب إلى ما كتبه المسـدي والراجحي ونهاد الموسـى وغيرهم. إلا أنه ينبغي أن نحتـرس منهجيـاً من التعامل مع المفاهيم التراثيـة والابتعاد عن الطريقة التي يتبعها كثير من الدارسين العرب المتمثلة في إطلاق «مصطلحات جديدة علـى مفهومـات قديمة عبرت عنهـا مصطلحات خاصـة أو مفهومات حَيَّت بصـورة ضمنيـة في أعمال النحويـين العرب» [1] فتقـارب دلالة الألفاظ بين

---

(١) نهاد الموسـى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر الحديث، بيروت، المؤسسـة العربية للنشر والتوزيع، ١٩٨٠، ص ١٦.

لغـات مختلفـة ثقافة وزمانا ليـس دليلا على أن هذه المفاهيم هي مشـتركة بين التراث اللغوي العربي واللسـانيات بقدر ما هو تقارب حدسـي تقريبي، أو لنقل هو تشـابه عفوي وتلقائي ليس له ما يدعمه نظريا ومنهجيا لاسـيما حـين نأخذ التصـورات القديمة في شـموليتها موازنة بمفاهيم اللسـانيات وسـياقات ظهورهـا تاريخيـا ومعرفيـاً. و للمفاهيم بعد جوهـري يكمن في أنها من المقومات النظرية للنشـاط العلمي والمعرفي نفسـه. وليست المفاهيم كيانات مسـتقلة بذاتها تطلق في فضاء المعرفـة اعتباطاً أو معزولة عن نمط التفكيـر الـذي أنتجها وأبدعهـا، دون أبعـاد وخلفيات ومنطلقـات تصورية تحكمها وتوجه مسارها. وكل مفهوم له مرجعيته وتاريخه وسيرورته الخاصة بـه انطلاقـاً من المكانة التـي ينفرد بها ضمن نظرية محـددة من جهة أولى، ومن خلال علاقته بغيره من المفاهيم سواء تلك المتواجدة معه ضمن النظرية نفسـها أو ضمن نظرية أخرى مغايرة قريبة أو بعيدة من جهة ثانية. ولسـنا في حاجـة إلـى التذكير بأن جوانـب مهمة من الالتباس الذي يسـود المعرفة عامـة ويخلق البلبلة والاضطراب مرده تداول المفاهيم دون مراعاة لأسسـها الفكرية. ويقتضي البحث في المفاهيم اتخاذ جملة من الاحتياطات التصورية والمنهجية: فالمفاهيم بناء نظري متماسـك، وشـبكة مـن العلاقات المرتبطة بتصـورات معينة داخـل نظرية معينة وخارجيا. وليسـت أهميـة المفهوم في مجـرد تعريفه أو ضبط تحديده، وإنما يجب الالتزام بالاسـتنتاجات العلمية والمنهجيـة الناجمة عن تحديده، والنظر إلى امتداداته الإجرائية في مسـتوى التحليل اللسـاني ذاته. نحن نعرف في اللسـانيات المعاصرة أن حد اللغة عند بلومفيلد [1] الذي يقوم على أنها سلوكات لفظية مثل الفرح والخوف وغيرها،

(1) *L. Bloomfield. le langage. Paris. Payot. 1973/1933.*

ينسجم كلياً والأهداف المنتظرة من التحليل اللساني التوزيعي (إقصاء الدلالة والاكتفاء بما هو شكلي). وتصدق الملاحظة نفسها على حد اللغة عند تشومسكي [1] باعتبارها نسقاً ذهنياً، فهو يحلل بنياتها التركيبية وفق المنظور الذهني الذي حدد من خلاله طبيعة اللغة عند الكائن البشري. ومن ثمَّ برزت مثلاً في اللسانيات التوليدية مفاهيم البنية العميقة والسطحية والقواعد التحويلية وغيرها تلبية لمقتضيات الموقف الذهني إزاء اللغة. ولذا ينبغي النظر للمفاهيم عامة لا كماهيات *Entités* مستقلة بذاتها، وإنما ضمن تصور عام تتكامل فيه الحدود والأدوات الإجرائية وأهداف التحليل في توافق وانسجام تامين مع المصادرات والمسلمات والاستدلالات المتبعة.

**٥-الانفصال ومظاهره.**

نحن نعرف أنه «لما كان كل علم رهين ماضيه وتاريخه، لا تتأسس أقواله إلا بدحض أقول سابقة له تأسست اللسانيات وانبنت في جملة ما انبنت عليه على مناهضة المنطق تأمينا لاستقلال علمها وتخليصا للمباحث النحوية القديمة من وطأة المنطق والفلسفة» [2] وقد بدأ انفصال اللسانيات عن الفكر اللغوي القديم بالابتعاد عن عدد من الأفكار الفلسفية العقيمة المتعلقة بأصل الألسنة ونشأتها، وقضايا الأصل والفرع وعلاقة المعنى بالعالم الخارجي، والمفاضلة بين الألسن وما شابه ذلك الخ. وتتجلى القطيعة الحاسمة بين اللسانيات والفكر اللغوي القديم في التحرر من هيمنة التأمل الفلسفي والتحليل المنطقي اللذين سادا الدرس اللغوي

---

(1) *Noam Chomsky; Aspects de la théorie syntaxique, Paris, Seuil, 1965/1971*

(٢) عز الدين مجدوب، المنوال النحوي العربي، ص ٣٦.

القديم شرقا وغرباً، وفرض المتطلبات النظرية والمنهجية المتعلقة أساساً بتحديد طبيعة الموضوع Objet وضبط التصورات والمفاهيم والأدوات الإجرائية التي يعالج من خلالها هذا الموضوع، وتكوين مصطلحية خاصة باللسانيات، فضلاً عن الرغبة المنهجية في الاستقلالية عن العلوم التي تشترك معها اللغة موضوعاً، وأخيرا الاستفادة من النتائج المحصَّل عليها في العلوم الأخرى، علوماً إنسانية أكانت أم دقيقة. وليس بإمكان متتبع تطور الفكر اللغوي أن يجادل في القطائع الإبستيمولوجية أو مظاهر الانفصال المعرفي بين الفكر اللغوي القديم والحديث وهي مظاهر يمكن حصر بعضها في ما يلي:

- اللسانيات فكر أشمل من الفكر اللغوي القديم، فهي لم تنفصل عنه فقط ولكنها احتوته وعملت على تطويره وتدقيقه وتجاوزه.
- وضع فرضيات عامة وضبط أدوات التحليل وتقنياته وأهدافه، ووضوح آليات البرهنة والاستدلال والصياغة الصورية.
- اللسانيات مراجعة دائمة ومستمرة. فالفرضيات وسائر الأدوات الإجرائية التي عولجت بها اللغة بمعناها العام *Le langage* أو الألسن الطبيعية *les langues naturelles* تم تحيينها وتطوير بعضها تدقيقاً وتعميقا وتعميماً أو التخلي عن بعضها الآخر-
- اللسانيات أكثر انفتاحاً على معارف أخرى من منطق ورياضيات وعلم النفس وعلم الاجتماع وفلسفة وإحصاء وإعلاميات وغيرها. .

والمستحيل في صلة التراث باللسانيات هو النظر إليهما خارج السياق التاريخي والثقافي لتطور الفكر الإنساني وللتقدم العلمي. ولعل هذا ما يسود في خطاب اللغويات العربية المعاصرة الذي بمنح

التراث قصب السبق على اللسانيات، لا بالمعنى الزماني الطبيعي بداهة وحتما. بل من منطلق أن التراث اللغوي العربي يتضمن مجمل النظريات التي جاءت بها اللسانيات في العصر الحديث. «فحداثة الرؤية والمنهج والإطار الذي لف هذا العلم [ أي اللسانيات ] فوصل إلينا من البيئة الغربية بهوية أوروبية أو أميركية على الرغم من أن معظم الحقائق التي اشتمل عليها واحتواها كانت قد أقرها الواقع اللغوي العربي منذ أزمان بعيدة ضاربة في القدم حتى عدت من مسلماته الفكرية آنذاك »[١].

إن المستحيل بين التراث واللسانيات لا يتعلق بالفارق الزماني أو المعرفي الفاصل بينهما، فأن تكون اللسانيات معرفيا أكثر تطورا وتقدما وتجاوزا للدراسات اللغوية القديمة شرقا وغرباً أمر طبيعي وعادي، وليس فيه أي انتقاص من قيمة التراث اللغوي العربي أو تقليل منه، كما أنه ليس مدعاة للافتخار الفكري والزهو بالحداثة. نحن أمام نمو طبيعي في مسار المعرفة البشرية وتقدمها. نقول هذا دون عقدة أو مركب نقص إزاء الآخر مصدر اللسانيات ومنبعها نشأة ونضجاً. ومن ثمة ليس ضروريا ربط التراث اللغوي العربي باللسانيات ومناهجها الحديثة والسعي بكل الوسائل إلى إقامة الدليل عن تماثلهما وتطابقهما التام. ولا يعني ذلك تبخيس قيمة التراث أو التقليل من أهميته المعرفية والحضارية، «لحضوره الدائم في ذاكرتنا الجماعية وتوجيه لكثير من اختياراتنا وسلوكاتنا مهما تنوعت أشكال هذا الحضور والتوجيه.»[٢]

ولما كنا نعتبر الممارسة العلمية صيرورة دينامية ومتغيرة على مر

---

(١) هدى صلاح رشيد، تأصيل النظريات اللسانية الحديثة، ص ١٢

(٢) عز الدين مجدوب، المنوال العربي، ص ١١.

الأزمـــان والحقب، فإننا نرفض من منظور إبســـتيمولوجي تلك المحاولات العربية الســـاعية إلى إيجاد تماثل تصوري أو منهجي بين التراث العربي واللســـانيات على أســـاس الأســـبقية التاريخية مثلما نقرأ في هذا القول الحماسي الذي يرى أن « حداثة النظرية الغربية لا يعني أنها منفصلة عن التراث، بل إن العلاقة موجودة لا بين التراث اللغوي العربي واللســـانيات فحســـب، وإنما بين كل التراثات العالمية واللســـانيات الحديثة، لأنه يمكن للســـانيات أن تكون علماً براســـه له اســـتقلاليته وعلميته وشرعيته ما لم يستند إلى التراث اللغوي العربي بله العالمي»[1] إن إعمال الفكر في ظاهرة اللغة وفي الألسنة الطبيعية هو فعل إنساني واع يتطور وينمو نوعيا حسب الإمكانات المعرفية المتاحة لكل ثقافة في سياق تاريخي اجتماعي خاص بها دون غيرها. وإذا كان البحث في اللغة بحثا قديما قدم اســـتعمال الإنسان للغة نفســـها فهو ما فتئ ينتقل من براديغم *Paradigme* إلى آخر وفق تطور المعرفة الإنسانية نفسها وحاجياتها. ولا يخرج التراث اللغوي العربي ولا اللسانيات نفسها عن هذه القاعدة العامة في تطور المعرفة الإنسانية، ومـــن ثمة يجب النظر إلى التراث اللغوي العربي القديم على أنه يجســـد مثل الفكر اللغوي الهندي واليوناني والروماني وفكر القرون الوسطى في أوربا ولغويات ما قبل ظهور اللسانيات الحديثة مرحلة من مراحل الفكر اللغوي الإنساني مثلما أن اللسانيات بدورها ليست سوى مرحلة من هذا التفكير البشـــري في اللغة الممتد مئات القرون. ويحتم علينا هذا المنظور لتطور المعرفة أن لا نحكم ســـلباً أو إيجاباً على المقاربات القديمة بمنظار المقاربـــات الجديـــدة لأن العلم نفســـه يتطور ويتغير مـــن حقبة إلى أخرى

(١) هدى صلاح رشيد، المصدر السابق، ص. ٢٥.



قراءات معاصرة لقضايا في التراث اللغوي والأدبي والبلاغي
بحوث محكمة مقدمة في المؤتمر الدولي الثالث (التراث اللغوي والأدبي في ضوء المناهج الحديثة)
٧/٧/١٤٤٠هـ - ١٤/٣/٢٠١٩م

وأحياناً داخل الحقبة الزمانية الواحدة.

ومما لاشك فيه أن اللسانيات *linguistique/ linguistics* ليست استمراراً للتراث اللغوي العربي القديم، بل وردت إلينا نتيجة للانفتاح المعرفي الذي عرفه العالم العربي منذ منتصف القرن التاسع عشر. لذا فقد اتخذ البحث في العلاقة بين التراث واللسانيات منحى آخر غير ما كان منتظراً منه، إذْ تمَّ في إطار ما أصبح شائعاً تحت اسم إعادة قراءة التراث اللغوي، أو «إعادة التشكيل»، أي تأويله وفهمه فهماً جديداً في ضوء ما تقترحه اللسانيات من نظريات، ومن ثمة باتت قضايا اللسانيات جزءاً من معضلة فكرية أكبر هي إشكالية الأصالة والمعاصرة. وقد سمينا هذا الضرب من البحث اللغوي العربي الحديث ب «لسانيات التراث»[1]. التي تسعى جاهدة إلى إثبات تفوق التراث اللغوي العربي على ما جاءت اللسانيات من نظريات ومناهج بحث وتحليل. وأن كل ما جاءت به متضمن في تراثنا منذ عدة قرون. وكان دخول اللسانيات إلى الثقافة العربية الحديثة فرصة تاريخية لتصفية حسابات حضارية قديمة بين الشرق والغرب. فقد كان العرب ولا زالوا حتى اليوم يعتقدون أن كل ما يمكن أن يقال عن اللغة عامة وعن العربية خاصة وارد بالكمال والتمام في التراث، وهو ما نجم عنه «لدى العربي رؤية من القداسة تجاه لغته النوعية وتجاه عملية درس اللغة ذاتها كما نشأن سياج من المحظورات ترسخت بموجبه عقد الاستغناء، فكأنما حال العربي اليوم تقول: أفإن رضينا أن نلتجئ إلى غيرنا في علوم الطبيعة وصناعة الطب واسرار

(١) مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، منشورات كلية الآداب ، الدار البيضاء عين الشق، ١٩٩٨.

الفضاء أفيليق أن نتتلمذ أيضا في علوم اللغة على من سوانا؟ »[1].

لقــد انتهت مجمل قراءات التراث اللغــوي إلى نتيجة عامة تلخصها العبــارة المأثــورة »ما ترك الأول للآخر شــيئاً«. ومن ثمة فإن اللســانيات التي اعتبرت فتحاً كبيرا عند أهلها في الغرب ليست جديدة على التراث العربي، وأنها ظهرت منذ بداية الفكر اللغوي العربي مع أئمة النحو واللغة أمثال الخليل وسيبويه ومن جاء بعدهم. وإذا كنا نقدر جهود الأئمة العرب الأوائل في النحو واللغة، فهذا لا يعني مطلقاً أنَّ الأفكار والتصورات التي جــاءت بها اللســانيات منذ بداية العشــرين وردت في مضان مصنفاتهم. «وقد يخطئ من يعتقد أننا ســنجد في اللســانيات الأولى (الفكر اللغوي القديم) مقابلاً للسانيات الحديثة أو طريقاً عربياً إليها. فالمستقبل ليس بالضــرورة امتــداداً للماضــي، لأن التاريخ سلســلة منعطفــات، وكل علم يســتجيب لإشــكالية زمانه»[2][٢٨] وواضــح أن المقاربات التي تســعى إلى تأصيــل اللســانيات والبحث عن جذور لها في التــراث اللغوي العربي، لم تستوعب بعد أبعاد منطلقين أساسيين في اللسانيات الحديثة:

- اللسانيات منظومة تصورية ومفاهيمية ومصطلحية مختلفة عما جاء في التراث اللغوي القديم شرقا وغربا.
- التحليل اللســاني يتمثل في تحليل بنيات الألسن الطبيعية بمباشرتها في ضوء فرضيات عامة ووفق نموذج نظري محدد.

والقراءات التي تؤكد أســبقية التراث اللغوي العربي على اللسانيات لا تراعي في اســتنتاجاتها وخلاصاتها الشــروط التاريخية والاجتماعية

(١) عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص ١٣.

(٢) أنطون المقدسي، علام اللسانيات؟ دمشق، الموقف الأدبي، عدد١٣٥- ١٣٦، ١٩٨٢.

والثقافيــة للمعرفــة وتقدمها عند الإنســان. وهي بهذه الأحــكام المتغيرة والمتحولة في حق التراث اللغوي العربي حســب تطور النظريات اللســانية تجعــل مــن المنظومة التراثية نظريــة تتضمن حقائق مطلقــة. ومثل هذا القول لا يتناسب ومفهوم النظرية العلمية التي تقدم مجموعة من الحقائق النســبية القابلة للتجاوز. والمقارنة بين التراث اللغوي العربي واللسانيات تسعى في جل الأعمال العربية إلى إثبات أصالته وهي مقارنة إن كانت لها دوافع حضارية فليس لها ما يسوغها علميا، ذلك أن أصالة التراث ليست مرتبطة البتة باللســانيات وما تقدمه من نظريات مهما بلغت من درجات التطــور العلمــي. فالفكر اللغوي العربــي نظرية في اللغة لهــا منطلقاتها الخاصة بها، لأن أصالة التراث قائمة في طبيعة منظومته الفكرية العامة، باعتبــاره وليــد بيئة عربيــة محضة مرتبطــة بحتميات دينية وسياســية واجتماعية وثقافية هي التي أنشأته ووجهت مساره التاريخي. واللسانيات الحديثة هي الأخرى لها منطلقاتها وأسســها الفكرية الخاصة بها. فأي مقايســة هاته التي تقوم على أســس متباينة ومختلفة ثقافيا وتاريخياً؟.

ويكشــف تعامل الخطاب العربي الحديث عن فهم حدســي وتلقائي لمضامين اللســانيات لا يأخــذ بعين الاعتبار مصادرهــا الفكرية والإطار العــام الذي أنتجها، إذ تنطلق الدراســات العربية في محاورة التراث مما يشبه «الحدس بأن بين مناهج النظر اللغوي على اختلاف الزمان والمكان والإنسان قدرا مشتركا يقع بالضرورة لعله يوازي، على نحو أو آخر، ذلك القدر المشترك الذي يلتمس في هذه الأزمنة بين مختلف اللغات الإنسانية في العالــم» [1] غيــر أن ما تتناوله قراءة التراث اللغــوي من مفاهيم مثل:

(١) نهاد الموسى، نظرية النحو العربي، ص ٩.

البنيــة أو العلاقــات أو البنيــة العميقــة أو البنية الســطحية أو التحويل أو الوظيفة والقائمة طويلة ليســت مفاهيم بســيطة قابلــة للفرز والعزل النظري بهذا لكيفية التي نجدها في خطابنا اللساني المعاصر. إن المفاهيم في اللسانيات وفي غيرها من المعارف والعلوم مرتبطة في جوهرها بمبادئ نظريــة ومنهجية عامة وعلى جانب كبير من التعقيد باعتبارها جزءا من شــبكة من الإشكالات المتداخلة. وليست المفاهيم أشياء جاهزة. إنها كما ســبقت الإشارة إلى ذلك في فقرة سابقة أشــياء تبنى نظريا ولها قيمتها في إطار نظري محدد، فضلاً عن «إن إعمال المفاهيم اللسانية في التراث أصعــب مــن تحصيل هذه المفاهيم في حد ذاتها وإدراكها في مصادرها أو نشرها بلسان غير اللسان الذي اكتشفت فيه، أو قل إن إعمالها في سياق حضاري غير السياق الذي نشأت فيه يمثل مستوى من الفهم والامتلاك أرقــى من الفهــم الأول وهــو في صعوبته يكاد يضاهي صعوبــة ابتكارها مــن أصلها لأنه يقتضي من الباحــث إدراكا لحقائق العلم في خصائصها المجــردة وفي ماهيتها الصرف مهما كانت الملابســات الطارئة التي تحف بها أو الأعراض التي تتنكر بها»[1]

واعتماد قراءة التراث ليست ممارسة التحليل اللساني بالمعنى الدقيق سنلاحظ أن الدراسات التي تعتمد القراءة تسعى إلى التوفيق بين الدرس اللغوي القديم واللســانيات بكل الوســائل والطرائــق البيانية والبلاغية. فالتأويــل الذي تقوم به القــراءة وتقدمه كفهم جديــد للتصورات اللغوية القديمة لا يســتند إلــى أية إواليــات نظرية أو منهجيــة مضبوطة كفيلة بتحديــد مســافات التأويل، بحيــث إن قراءة التراث في ضوء اللســانيات

(١) عز الدين مجدوب، المنوال النحوي العربي ن ص ٤٢.

ومناهجها تتحول إلى مجموعة من التقديرات المقدمة في شكل حدوس وتخمينات متباينة تصبح فيها نصوص التراث صور مستتكهة مقدرة تومئ وتوحي بأشياء أخرى. يقول أحد الباحثين: «أقمت مقابلاتي في مواضع عدة على أمثلة من معالجات للنحويين العرب، قَدرْتُ أن أصولها متلاقية مع أصول مناهج النظر اللغوي الحديث» (1). وتكمن الصعوبة المنهجية المرتبطة بقراءة النصوص القديمة في أنها غير قادرة على الإجابة عن عدد من الأسئلة المنهجية الملحة ومن أهمها: - ماذا نقرأ؟ -كيف نقرأ؟- في ضوء ماذا نقرأ؟

إنها أسئلة تجعل الدراسات التي تبحث في العلاقة بين التراث اللغوي واللسانيات لا تستند إلى أساس نظري أو منهجي محدد، وذلك لعدم استناد القراءة المعتمدة فيها إلى وضع إبستمولوجي *statut épistémologique* مضبوط ومحدد نتيجة انعدام منهجية واضحة المعالم في هذا الباب. والمعروف أن القراءة تعتمد أساساً تأويل النصوص واستنطاقها، بعزل هذه النصوص عن سياقاتها الأصلية. فالقراءة لا تحدد بالضبط:

- كيف تقوم العلامات المستخدمة بالنصوص والدلالة بتوليد المعنى؟
- ما الآليات اللسانية أو اللغوية المستخدمة من أجل إنتاج هذا المعنى المحدد وليس أي معنى آخر غيره؟
- لمَ ينبثق هذا المعنى وضمن أي الشروط؟ (2).

كما لا تنظر القراءة إلى التراث المقروء كما هو في شموليته وكليته

(1) نهاد الموسى، المصدر المذكور. ص15. وص19.

(2) محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص32.

ولحظاته التاريخية. بل إنها لا تهتم بالتراث اللغوي إلا في إطار ما تستهدفه من وراء عملها القرائي أي على أساس انتقاء النصوص ونزعها من سياقها التاريخي ثم إعادة زرعها في سياق جديد وإسقاطها على الماضي إلى الوراء، وعلى المستقبل إلى الأمام، وعن التأويلات الحرفية أو الباطنية والمبالغات المعنوية[1].

والبحث في العلاقة بين التراث اللغوي واللسانيات في حاجة إلى رؤية منهجية محددة قادرة على ضبط معالم هذه العلاقة تصورياً وإجرائياً، والغايات المنهجية منها. أما الكلام العام والإنشاء الصالح لكل السياقات والمقامات فهو لا يندرج ضمن ما يمكن أن يعتد به كمنهج سليم في تحليل القضايا المعرفية والتعامل معها. والعمل الأكاديمي العلمي المقبول لا يتأسس على الكلام المنمق وعلى البيان والبلاغة. العمل المنهجي المقبول أو السليم وفق شروط المعرفة الصحيحة يتبع خطوات محددة تتمثل في: تحديد الموضوع، وتحديد الإشكال واعتماد رؤية منهجية مضبوطة في معالجة هذا الإشكال من منظور نظري معين. وبدون هذه الخطوات الأساس لا يمكن أن نقدم عملاً مقبولاً منهجياً. والمنهج ليس كلاما منمقاً يقوم على الإشادة أو الإطراء ولكنه طريقة تفكير مضبوطة في إطار تعامل مع الموضوع المدروس. إنه يستند إلى أصول ثابتة تقود إلى قوانين واضحة." فعالَم العالِم هو عالَم القوانين[2].

ويكفي أن ننظر إلى بعض الأعمال الرائدة في قراءة التراث اللغوي العربي على ضوء اللسانيات ومناهجها وهي أعمال يشكر لأصحابها مجهوداتهم في التعريف بالتراث وتقريبه من القارئ العربي. لكن ما

(١) المصدر السابق، ص٣٣.

(٢) *Jean Ullmo, La pensée scientifique moderne*. p.١٥٤.

الخلاصات النظرية التي انتهت إليها هذه الدراســات؟ إن التراث اللغوي العربــي قابــل لأن ينصهر في مجمل النظريات اللســانية الحديثة بجميع أشــكالها وتوجهاتهــا. وهــذا الموقف يتعارض ببســاطة مــع نظرية العلم ومقومــات التفكيــر العلمــي، فالنظريــة لا يمكنها أن تكــون هي ولا هي في الوقــت ذاتــه، أي أن تكون ماهتين مختلفتــين في الوقت ذاته. وأوضح هذا. وســأكتفي بعالم لغوي عربي بارز من علماء العربية الذين تعرضت تصوراتهــم لقــراءات متعــددة على ضــوء النظريات اللســانية الحديثة. فالجرجاني في بعض القراءات لساني بنيوي، وهو أيضاً في قراءات أخرى توليدي تحويلي مثله مثل تشومسكي، ثم نجده أيضاً وظيفياً وتداولياً مثل، أوســتين *J. Austin* وســورل *J. Searle* وكرايس*P. Grice* وغيرهم مــن كبــار التداوليين اليوم. لكن كيف يمكن أن يصيــر تصور معين بنيوياً وتوليدياً ووظيفياً وتداولياً في الوقت نفسه كما تقدمه لنا القراءات ؟

**٦-التراث واللسانيات: من التضاد إلى الاندماج**

– . نوافق الدارســين العرب الذين يعتقــدون أن التعامل مع التراث اللغوي العربي في ضوء اللســانيات في إطار إعادة القراءة له جانب ثقافي مهم يتمثل في التعريف باللســانيات وبالتراث على حد ســواء، وأننا كلما تفقهنا في اللســانيات فهمنا التراث العربي بصورة أعمق وأشمل ومنحناه روحــاً جديــدة. فلا مانــع إذا كان للســانيات أن تصدر أدواتهــا المنهجية وطرائــق تحليلهــا لتصبح أداة تحليل ناجعــة لكتابة تاريــخ الفكر اللغوي العربي كتابة جديدة يمنحه مكانته الحضارية التي يستحقها، وهو منطلق أبرز الذين درسوا بعمق العلاقة بين التراث العربي واللسانيات (وأبرزهم عبد الســلام المســدي وعبــده الراجحــي ونهاد الموســى عبــد الرحمان

حـــاج صالـــح والقائمة طويلة)، غير أن الممكن بـــين التراث اللغوي العربي واللسانيات لا ينبغي أن يبنى على تضاد تاريخي لا يولد سوى الاصطدام الفكـــري والحضاري، بل يجـــب أن يقوم على تفاعل الثقافات الإنســـانية والتكامـــل بينهـــا، وإن لم يكـــن دائما تفاعـــلاً متبادلاً . وإذا كان مشـــروع الذين ســـبقت الإشـــارة إليهم لم يخلـــص إلى نتائج عمليـــة ذات مردودية بالنســـبة للـــدرس اللغـــوي العربـــي قديمه وحديثـــه، من الممكـــن أن نوجه العلاقة بين التراث واللســـانيات وجهة أخرى، كأن نستفيد من اللسانيات ونتائـــج أبحاثها لا في دراســـة التراث اللغوي كما نصنع اليوم، في دراســـة اللغـــة العربية. وليس ضرورياً أن نجعل من اللســـانيات مصدرا للمقارنة والمقايســـة القائمة على القول باحتواء التراث للسانيات أو العكس، فهذا ليس مهماً في ذاته، بل تفرضه طبيعة التطور المعرفي عند الكائن البشري. والأجدى الاستفادة من مختلف أوجه الصلات الممكنة بين التراث اللغوي واللسانيات في دراسة اللغة العربية ذاتها ومعالجة باقي الظواهر اللغوية المتصلة بمســـتوى اكتســـابها واســـتعمالها الاجتماعي وتداولهـــا. وبعبارة أخـــرى فإن صلة التراث باللســـانيات لا يجب أن تقـــف عند حدود قراءة التصورات التراثية في ضوء اللســـانيات، بل ينبغي أن نســـتخلص من هذه اللســـانيات ما قد يُشـــكِّل أرضيـــة انطلاق نحو بدائل نظريـــة أو منهجية جديدة في دراسة اللغة العربية في ذاتها من منظور اللسانيات. والملاحظ أن الأدبيات اللغوية العربية الحديثة تهتم كثيرا بماضيها وتتشبث بالتراث اللغـــوي تمجيدا وتنويها وحفاظا على الهوية والذات الحضارية وهذا من حقهـــا، بل ومن واجبهـــا التاريخي والحضاري (المنظـــور الحضاري الذي أشـــرنا إليه ســـابقاً). لكنها في الوقت ذاته لا تهتم إلا نادرا بدراســـة اللغة

العربية من وجهة نظر اللسـانيات (المنظور العلمي). فقيمة أي فكر إنما هو في بناء الحاضر والمسـتقبل من خلال حل الإشـكالات اللغوية الكبرى التي تعيشها اللغة العربية:

- ما دلالة دراسة اللغة أي لغة علميا؟
- ما معنى أن ندرس اللغة العربية أو أي لغة أخرى من منظور اللسانيات؟
- ما نصيب معالجة اللغة العربية من منظور اللسانيات؟
- ما هو مستوى اللسانيات علميا في الثقافة العربية بحثاً وتدريساً؟

يجب في سياق الممكن بين التراث واللسانيات أن نلفت الانتباه إلى ضرورة بناء درس لغوي علمي وفق منظور اللسانيات كفرضيات عامة ومناويل يجعل من بنيات اللغة العربية موضوعه الأول والأساس: هذا ما ينبغي أن يشـكل رهان الدرس اللسـاني العربي الحديث الذي نجده للأسف الشديد يردد كثيرا من الأفكار التي لا يقبلها لا منطق العلم عامة ولا منطق اللسانيات الحديثة. ومن الواضح أن الدارسين العرب المحدثين لم يتساءلوا بعمق وشمولية - إلا في حالات نادرة- عن طبيعة العقبات التصوريـة والمنهجية التي تحول دون تأسـيس لسـانيات العربية على غرار ثقافات أخرى ومحاولة تشـخيصها والعمل على تجاوزها. كيف يمكن تجاوز الوضع الراهن؟

- هل يكون التجاوز طفرياً (بالمعنى البيولوجي للكلمة) بإلغاء كل مظاهر التمايز بين التراث اللغوي العربي بخلفياته الفكرية المتعددة وتناقضاته وخطاب اللسانيات بمنطلقاتها النظرية والمنهجية دفعة واحدة؟
- أم إن التجـاوز ينبغـي أن يكون بالتدرج في إرسـاء معرفة لغوية علمية

مبنية على أســس جديدة تسمح بتخطي مظاهر التعارض بين المقاربة التراثية واللسانيات؟

هذه أمور نظرية منطقية، لكن كيف يمكن تنزيلها على أرض الواقع؟ ماذا يمكن أن تقدم اللسانيات إلى الثقافة اللغوية العربية الحديثة؟

لقد أبانت بعض الدراسات العربية أن اعتماد اللسانيات والاحتكاك بها عربياً وإن حصل ذلك دون استيعاب عميق وشامل لفرضياتها العامة ونماذجها كان له آثار على الدرس اللغوي العربي الحديث تمثل في بعض التحولات المعرفية المهمة ومنها:

- التعريف باللسانيات الحديثة ومناهجها.
- رفض بعض التحديدات العربية القديمة المتعلقة بتقسيم الكلمة.
- إقصاء الفكر الفلسفي والمنطقي عن مدارج البحث النحوي.
- توسيع مجال الدراسة النحوية والانتقال بها من الكلمة والإعراب إلى دراسة الجملة.[1]

على أنه بإمكان اللســانيات أن تقــدم للفكر اللغوي العربي منطلقات وأسس تصورية ومنهجية تساعد في التعامل مع اللغة العربية ومنها:

- رصــد الآليات التي تحكم البنيات الذهنية للغة واشــتغالها في علاقة وثيقة بالآليات المعرفية والإدراكية التي ترتكز إليها اللغة البشــرية في وجودهــا الإنســاني، وهو ما يعني أن اســتيعاب هــذه الآليات وكيفية اشــتغالها يمكــن أن يعيــد النظر في طبيعة النشــاط اللغــوي المتعلق بوصف الظواهر اللغوية والتقنين لها.

(١) عز الدين مجدوب، المنوال النحوي العربي، ص ٢٣ وما بعدها]

- فهم أعمق لطبيعة الألسنة البشرية ومكوناتها (الصوت /الصرف/ التركيب/ المعجم/الدلالة) وطرائق تحليل هذه المكونات، وهو ما يسمح بإعادة النظر في كثير من التصورات والأحكام الجاهزة الموروثة. ففرضية مستويات التحليل اللغوي مثلا مكنت في تحليل الألسن من الكشف عن علائق نوعية غير مسبوقة في مستويات الوحدات الصوتية والصرفية ووحدات الجملة في المستوى السياقي والاستبدالي. وهو ما يميز اللسانيات عن الممارسة التراثية القديمة التي خلطت بين مستويات التحليل.
- صوغ الأنحاء وفق ما تقترحه النظرية اللسانية العامة من مبادئ عامة وما تمدنا به من المعلومات اللازمة حول الطرائق التي ينبغي أن يكون عليها النحو سواء أكان نحواً علمياً خاصا بلسان معين أم نحواً تربوياً.
- وضع الأسس النظرية والمنهجية لبناء الأنحاء الخاصة من حيث صياغتها وأشكالها وأهدافها وعلاقتها بالألسنة الطبيعية انطلاقاً من الشروط الداخلية والخارجية اللازمة في كل نحو مثل: البساطة والتعميم والوضوح والاقتصاد. وفي الأدبيات التوليدية منذ ١٩٥٧ ما يكفي من الضوابط النظرية والمنهجية لتجاوز كثير من نواقص الأنحاء التقليدية.
- تجاوز المقاربة اللغوية التجزيئية التي تهتم بالوحدات اللغوية مستقلة بعضها عن بعض، والبحث عن منظور عام ينظر إلى وحدات الجملة في شموليتها في مستوى المحور السياقي والاستبدالي. مثلاً نعرف أن قضايا الجملة في النحو العربي وردت متفرقة في باب الفعل وباب

الفاعل وباب المفعول به وغيرها. أما المعالجة اللسانية الحديثة فتتم بشكل بنيوي (هيكلي) تربط بين الخصائص المقولية والتوزيعية للباب المدروس والأبواب الأخرى التي تؤلف معه بنية الجملة العربية بحيث تمت البرهنة النظرية على أهمية الربط بين الابتداء والاشتغال والتقديم والتأخير والربط بين الجملة الفعلية والجملة الاسمية والتوحيد بين البنى التي اعتبرت اسمية كالجمل الموصولة والجمل الاستفهامية.[1]

- الابتعاد عن التحديدات والتحاليل القائمة على المعنى واعتماد الروائز *tests* الشكلية، في تحديد طبيعة العناصر اللغوية والعلاقات القائمة بينها، مما يستدعي إعادة النظر في كثير من التقسيمات النحوية القديمة التي لاتعد تصمد أمام نتائج التحليل اللساني الحديث (أقسام الكلام على سبيل التمثيل لا الحصر).

- أهمية المعطيات والمعلومات التي تقدمها فروع اللسانيات كالسوسيو لسانيات والسيكو لسانيات والإثنو لسانيات في فهم الواقع اللغوي لاسيما ما يتعلق بوضعية الازدواجية اللغوية التي تعيشها كثير من المجتمعات ومنها المجتمعات العربية، مما يسمح برصد الواقع اللغوي الحقيقي الذي غالبا ما يتم تجاهله لأسباب سياسية واجتماعية واختصاره في واقع متجانس، بحيث يردد التراث اللغوي القديمة صدى تجانس لغوي غير واقعي. نستحضر هنا أيضاً علاقة اللغة العربية باللهجات العربية المحلية في واقع لغوي أضحى يعرقل تعلم اللغة العربية. وفي هذا الاتجاه نذكر بعض الاقتراحات النظرية الفعالة لرصد هذا الواقع

---

(١) ينظر في أبحاث الفاسي الفهري: اللسانيات واللغة العربية. الدار البيضاء. دار توبقال، ١٩٨٤. والبناء الموازي. الدار البيضاء. دار توبقال، ١٩٩٠.

ونذكر منها على وجه التحديد مفهوم تحويل القدرة *code switch-ing* أي الانتقال من القدرة اللغوية *Compétence*(١) الخاصة باللغة العربية إلى القدرة الخاصة باللغة الدارجة شعوريا أو لا شعوريا (٢)

تلكم أمثلة عامة لعلاقة اندماجية بين اللسانيات والتراث اللغوي العربي قد تسهم في خلق وعي لغوي جديد في ضوء حاجة اللغة العربية الماسة إلى وصف علمي جديد. وليس من المفروض أن ينظر إلى تحليل اللغة العربية من منظور اللسانيات على أنه إقصاء حضاري أو ضرب للتراث في جانبه النحوي واللغوي او نوع من المنافسة بين القديم والحديث. فلا مجال لإنكار الفرق بين أسس الممارسة اللسانية والممارسة النحوية. فلكل منهما مرجعيته الفكرية الخاصة به التي ترسم حدوده وتبين إمكاناته وحدوده في الزمان والمكان. « فالنحو واللسانيات ليسا ضدين بالمعنى المبدئي للتضاد، كيف والنحو نفسه منذ القديم مفهوم مزدوج، إذ هو يعني في نفس الوقت جملة من النواميس الخفية المحركة للظاهرة اللغوية، كما يعني عملية تفسير الإنسان لنظام اللغة بمعطيات

---

(١) مفهوم القدرة المقصود هنا كما تحدده الأدبيات التوليدية هو المعرفة الضمنية باللسان التي تمكن من توليد ما لا حصر من الجمل النحوية والقدرة على إزالة الالتباس أو الحكم على درجة النحوية وما شابه ذلك من تعامل المتكلم السامع مع نظام لسانه.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول افتراض تحويل القدرة ينظر في عبد اللطيف شوطا وعبد المجيد جحفة: تحويل القدرة من المغربية إلى العربية، في كتاب قضايا في اللسانيات العربية منشورات كلية الدار البيضاء، ابن مسيك ١٩٩٢. وانظر مناقشة هذا الافتراض في عبد الرحمان بودرع، إشكال ظواهر اللغة العربية بين النحو العربي واللسانيات، ص ٣٢ وما بعدها ضمن كتاب: مكانة الأنحاء التقليدية في اللسانيات التقليدية، مكناس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٧ (سلسلة الندوات رقم ١٠).

المنطـق مـن العلل والأسـباب والقرائن، ويتجلى هذا الفـرق المفهومي في الصياغة المزدوجة تبعا لقولك نحو العربية أو نحو الفرنسية. فأنت تعني نظامهـا أو لقولـك النحو العربـي أو النحو الفرنسـي، فالمقصود عندئذ عملية استخراج النظام الداخلي في تلك اللغة» [1].

## الواجب كخاتمة

عرضنا في الصفحات السابقة بعض مظاهر الممكن والمستحيل في صلة التـراث اللغوي باللسـانيات. ويتعين علينا أن نختـم بتقديم الواجب العلمي الذي يفترض القيام به واتباعه دراسـة اللغة البشـرية والألسـن الطبيعية من منظور اللسـانيات، ذلك أن العلاقة بين التراث اللغوي واللسـانيات في الثقافـة العربية تكشـف عن مفارقـات صارخة غالبا ما يتـم القفز عنها. مـا يسـترعي الانتباه هـو طبيعـة التشـكيلات *Configurations* المعرفية المسـتحدثة والممارسـات التي اتخذتها الإشـكالات المرتبطة بهذه العلاقة، والتحـولات التصورية التي تجسـدها في قلب الدرس اللسـاني العربي. أو مـا يطلق عليـه تجاوزا اللسـانيات العربية. لقد تحولـت العلاقة الطبيعية بين اللسـانيات وتاريخها في البيئة الثقافية العربية الحديثة بحثا وتدريسـاً إلـى علاقة أشـد تعقيداً هـي علاقة اللسـانيات بالنحو العربـي. بدل أن تكون علاقة اندماجية في دراسـة اللغة العربية باعتبار هذه الأخيرة صلب التحليل اللسـاني ومداره، بينما تندرج صلة التراث اللغوي أيا كان مصدره وأصله باللسـانيات ضمن مجال تاريـخ الفكر اللغوي. وقد قاد هذا الازياح في العلاقة بين اللسـانيات واللغة العربية من جهة وبين اللسـانيات والنحو

---

(١) عبد السـلام المسـدي، اللسـانيات وأسـس المعرفية، تونس، الدار التونسـية للنشـر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٦، ص ١٥

العربي من جهة ثانية بالرغم من الوشائج المتينة بينهما إلى نتائج غير مجدية بالنسبة إلى الممارسة اللغوية العربية تنظيراً وتطبيقاً، لعل أبرزها هو إحلال اللسانيات في مواجهة النحو العربي وخلق صراع حقيقي بينهما، ما تزال آثاره السلبية سارية في الثقافة العربية. ولسنا في حاجة إلى أية مواجهة فكرية بقدر ما نحن في حاجة إلى الاقتداء بشروط المعرفة العلمية السليمة والسير على منوالها كما هو معمول بها كونيا والاحتكام إليها حالة حصول أي خلاف معرفي. فأن تدرس اللسان من منظور اللسانيات أي علمياً يعني بالأساس أن يكون لك موضوع محدد (هو اللسان العربي) أو أي لسان آخر، وأن تعالجه من وجهة معينة وفق فرضيات عامة ونماذج مضبوطة. وكل مقاربة للظواهر اللغوية لا يحكمها إطار نظري لن تكون ذات جدوى ومآلها الفشل الذريع. وليس البحث في اللسان العربي أو أي لسان طبيعي آخر سوى الوجه الآخر لمحصلة اللسانيات العامة من فرضيات ومبادئ منهجية عامة. فالمنطلقات والأسس العامة في اللسانيات هي نفسها بالنسبة إلى دراسة جميع الألسنة الطبيعية.

ونؤكد مرة أخرى أن توظيف اللسانيات في دراسة التراث اللغوي العربي أمر مستحب وأن دراسته مهمة تاريخية لا مجال للتملص منها لكتابة تاريخ يليق بمكانة هذا التراث وقيمته الحضارية كحلقة في مسار الفكر اللغوي الإنساني الذي خرجت من أرحامه اللسانيات الحديثة. غير أن البحث من هذه الوجهة المعرفية مهما كان مفيدا وجادا في الكشف عن إسهام التراث اللغوي العربي ضمن مسيرة التراث الإنساني لا يسهم بشيء في تطوير الدرس اللساني العربي المتعلق بدراسة اللغة العربية أو تجديده. والبحث في اللغة العربية ذاتها شرط إمكان اللسانيات العربية

وتأسيسها على أسس علمية كونية.

ولا نأتي بجديد إذا قلنا إن من أهم القضايا اللسانية التي جاء بها سوسير (١٨٥٧-١٩١٣) وتبنتها بعده بشكل أو بآخر كل مدارس اللسانيات واتجاهاتها، يتمثل أن موضوع اللسانيات الوحيد والحقيقي هو دراسة اللسان في ذاته ولذاته. واللسانيات في المقام الأول تعامل مباشر مع ظواهر لغوية يتم استقراؤها من معطيات اللسان *La langue* تدرس وفق فرضيات عامة تقترحها النظريات اللسانية وهذا هو منطلق التحليل اللساني.« إن أي مباشرة علمية ضمن العلوم التجريبية ومنها علم اللغة تحتاج ضرورة من الباحث استقراء المعطيات التي يتخذها موضوع علمه والرجوع إلى الوقائع التي تعينه. ولكن هذه المباشرة لا يمكن أن تكون ناجعة إلا إذا الباحث مباشرته الاختبارية ضمن مرجع نظري، فافتراض جملة من الفرضيات حوله حسب مقتضيات الصياغة في النظريات العلمية»[١][٤٠]. ينبغي في نظرنا الانطلاق في التحليل اللساني للغة العربية من تحديد مفهوم اللسان موضوع البحث في اللسانيات الذي ليس له أي علاقة بالمفهوم الحسي أو الواقعي لما يطلق عليه عادة «اللغة»، كأصوات مدركة حسياً، نسمعها فنتعرف عليها[٢]. والتعامل مع اللغة من منظور

---

(١) عز الدين المجدوب، المنوال النحوي العربي، ص ١٦.

(٢) وتقسم اللسانيات منذ سوسير ما يعرف عادة بالظاهرة اللغوية إلى ثلاث مستويات: اللغة واللسان والكلام. فموضوع اللسانيات على الأقل في صورتها البنيوية ليس هو اللغة، أي الملكة اللغوية أو القدرة على اللغو بصرف النظر عن العرق والجنس والمجتمع، أي ما يسميه الفرنسيون *Le langage*، وإنما اللسان*La langue* (القدرة-*compétence* في اصطلاح تشومسكي) أي نسق القواعد المجردة والعامة المشتركة بين المتكلمين داخل مجموعة لغوية معين»

اللســانيات الحديثــة محكوم بغاية محددة تتمثل في «دراســة اللســان في حد ذاته لذاته»[1]، وهي قولة فرديناند دي سوســير الشــهيرة التي كانت وراء اســتقلال اللســانيات كعلم قائم الذات له إطاره وموضوعه وأسســه المنهجيــة وأدواتــه الإجرائية المتميزة عن غيره مــن المجالات اللغوية التي كانت مندمجة في الدرس اللغوي القديم كالنحو والبلاغة وتحليل النصوص والفيلولوجيا وغيرها من الممارسات اللغوية.

أمــا الخطاب اللســاني العربي الحديث فيقوم علــى محاور تصورية ومنهجية (إن كانت ثمة اعتبارات منهجية معينة) تخرج عن صلب الدرس اللساني الدقيق. وهو حين يحصر اهتماماته وعنايته في تحليل التصورات والمفاهيــم اللغوية القديمة في ضوء اللســانيات، يتعالى عن اللغة العربية موضوعــه الحقيقــي ويتجاهلها، فلا يعالــج بنياتها الصوتيــة والتركيبية والدلالية وما إلى ذلك كما يفترض في التحليل اللساني الحديث بالنسبة إلى ألســنة طبيعية أخرى كالإنجليزية أو الفرنســية أو الألمانية وغيرها. إن النظــر إلى التــراث اللغوي العربي في ضوء اللســانيات ومناهجها من منظــور مــا يصطلح عليه بإعــادة قراءة التــراث لا يضيــف جديدا إلى التحليل التراثي القديم، علما بأن معالجة اللسان في ذاته كبنيات صوتية وصرفيــة ومعجميــة وتركيبية ودلالية هي مدار اللســانيات. والواجب أن تكون اللغة العربية أولا وأخيراً هي الموضوع الحقيقي والوحيد للسانيات العربية، لا دراســة التصــورات الواردة في التراث اللغــوي العربي القديم أيــا كانــت قيمة التصورات التي يحملها بين طياته. فلا مســتقبل للتراث العربــي دون تجديــد البحث في اللغــة العربية ذاتها، اللغــة العربية التي

(١) *F. de Saussure . Cours de linguistique générale. p* .٣١٧

حملت على عاتقها هذا التراث دون كلل منذ قرون خلت، وعبرت عن مكوناته وروافده المتنوعة بسخاء كبير. ألا تستحق هذه اللغة دراسات لسانية لائقة بمكانتها وتاريخها تكريما ووفاء لأولئك اللغويين والنحويين الأوائل الذين وصفوا هذه اللغة انطلاقا من لا شيء وهو وصف لم نتمكن نحن المحدثين حتى الآن من تطويره وتنميته نحو الأفضل بالرغم من الوسائل الهائلة المتاحة لنا؟

## المصادر


- أبو المكارم علي، تقويم الفكر النحوي، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٥.

-تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٩٧٤، ط١/١٩٥٥.

أ- اللغة بين المعيارية والوصفية، الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٩٥٨/١٩٨٠

ب- العربية معناها ومبناها، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٣

ج- الأصول: دراسة في الأسس الإبستيمولوجية للفكر اللغوي العربي، الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٩٨١.

- حاج صالح عبد الرحمان، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية في العالم العربي، الرباط، ندوة اليونسكو حول اللسانيات وتطورها في الوطن العربي، ١٩٨٧.

- حافظ اسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٩.

- حجازي محمود فهمي، علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، القاهرة، الهيئة العامة للتأليف والكتاب ١٩٧٠(المكتبة الثقافية، عدد ٢٤٩ ).

- حسين محمد محمد، مقالات في الأدب واللغة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦.

- حلمي خليل، اللغة العربية وعلم اللغة البنيوي، دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨.

- دك البـاب جعفـر، الموجـز في شـرح دلائـل الإعجاز، نظريـة الإمام الجرجانـي اللغوية وموقعها في علم اللغة العام الحديث، دمشـق، دار الجيل، ١٩٨٠.

أ- مدخـل للسـانيات العامة والعربيـة: المنهج الوصفـي والوظيفي، دمشق، الموقف الأدبي عدد ١٣٥- ١٣٦ تموز ١٩٨٢.

- الراجحـي عبـده، النحو العربـي والدرس الحديث، بحـث في المنهج، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٩.
- زكي حسـام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٥، ط١/١٩٨١.
- غلفان مصطفى، اللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في المصادر والأسـس النظرية والمنهجية، منشورات كلية الآداب عين الشق، الدار البيضاء١٩٩٨ ،
- الفاسي الفهري، عبد القادر، ملاحظات حول الكتابة اللسانية، الرباط، مجلة تكامل المعرفة، عدد٩/١٩٨٤ وأعيد طبعه في: اللسانيات واللغة العربية، الدار البيضاء، دار توبقال، ١٩٨٥.
- أساسيات الخطاب العلمي والخطاب اللساني، ضمن كتاب: المنهجية في الأدب والعلـوم الإنسـانية، الجـزء١، الدار البيضـاء، دار توبقال، ١٩٨٥.
- صبحي الصالح، أصول الألسـنية عند النحـاة العرب، بيروت، مجلة الفكر العربي، عدد ٨-٩، معهد الإنماء العربي، ١٩٧٩.
- قنصوة صلاح، فلسفة العلم، ط٢ .بيروت، دار التنوير، ١٩٨٢

- المتـوكل أحمـد، نحو قـراءة جديـدة لنظرية النظم عنـد الجرجاني، الرباط، مجلة كلية الآداب محمد الخامس، عدد١/١٩٧٧.
- اقتراحات من الفكر اللغوي العربي القديم لوصف ظاهرة الاسـتلزام التخاطبي، ضمن أعمال ندوة البحث اللسـاني والسيميائي، الرباط، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، ١٩٨٤.
- مذكور عاطف، علم اللغة بين التراث والمعاصرة، القاهرة، دار الثقافة للنشر، ١٩٨٧.
- المـدلاوي محمد، اللسـانيات العربية ما بين البحـث العلمي وتهافت التهافت، دراسات أدبية ولسانية، فاس، عدد٣/١٩٨٦.
- المسـدي عبد السلام، التفكير اللسـاني في الحضارة العربية، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١.
- اللسـانيات وأسسها المعرفية، الدار الوطنية للنشر، الجزائر/ تونس، ١٩٨٦.
- المقدسـي أنطون، علام اللسانيات؟ دمشق، الموقف الأدبي، عدد١٣٥-١٣٦سنة ١٩٨٢.
- الموسـى نهـاد، نظريـة النحو العربـي في ضوء مناهج النظـر اللغوي الحديث، بيروت، المؤسسة العربية للنشر، ١٩٨٠.
- مقدمة في علم تعليم اللغة العربية، ضمن أعمال ندوة اللسـانيات في خدمة اللغة العربية، تونس، ١٩٨٣.
- الوعر مازن، أزمة اللسـانيات واللسـانيين في الوطن العربي، دمشق، مجلة المعرفة، عدد ٢٥١/ ١٩٨٣وأعيد نشـره في قضايا أساسـية في

علم اللسانيات. الحديث، دمشق، دار طلاس، ١٩٨٨.

## ثانياً: المصادر الأجنبية

*Apresjian. Eléments sur les idées et les méthodes de la linguistique structurale et contemporaine. Paris. Dunod. 1973.*

*Benveniste Emile. Problèmes de linguistique générale. Paris. Gallimard. 1966.*

*Bierwich Manfred. Modern Linguistics. La Hague. Mouton. 1971.*

*Ducrot. O. T. Todorov. Dictionnaire encyclopédique des sciences du Langage. Paris. Seuil. 1972.*

*Feyerabend Paul. Contre la méthode. Paris. Seuil. 1979/1975.*

*Granger Gilles Gaston. Langages et épistémologie. Paris. Klincksieck. 1979.*

*Hempel Karl. Elèments d› épistémologie. Paris. A. Colin. 1972.*

*Holton Georges. L›imagination scientifique. Paris. Gallimard. 1981.*

*Jacob. André. Genèse de la pensée linguistique. Paris. A. Colin. 1973.*

*Jannot Michel. La pratique linguistique: Science ou idéologie. Paris. Dunod. 1975.*

*Lepschy. G. C. La linguistique structurale. Paris. Payot. 1969.*

*Mounin Georges. Histoire de la linguistique des origines au XX ième siècle. Paris. PUF. 1974.*

*Piaget Jean. Epistémologie des sciences de l›homme.*

*Paris. Gallimard. 1972.*

*Pike Kenneth. Linguistics Concepts. London. Nebraska Press. 1982.*

*Popper Karl. La logique de la découverte scientifique. Paris. Payot. 1973.*

*Revezin. I. Modèles linguistiques. Paris. Dunod. 1968.*

*Robins. R. H. Linguistique générale: une introduction. A. Colin. Paris. 1974.*

*___ ___. Brève histoire de la linguistique. Paris. Seuil. .1976/1967.*

*Sampson. G. Schools of linguistics. London. Hutshinston Press. 1980.*

*Saussure. F. de. Cours de linguistique générale. Paris. Payot. 1974.*

*Toulmin. Stephan. L'explication scientifique. Paris. A. Colin. 1973.*

*Ullmo. Jean. La pensée scientifique moderne. Paris. Flammarion.1971.*